لورد كرومر

أمام التاريخ[1]

— ١ —

لو بقي جناب لورد كرومر عاماً واحداً في منصبه لعيّدَ عيده الذهبي في خدمة دولته لأنه صرف حتى اليوم تسعة وأربعين عاماً في خدمة المصلحة البريطانيـة . ولقد أصدرت « الجريدة » أمس ملحقاً ذكرت فيه لمعة من ترجمته فيجمل بها اليوم أن تفصل أعمال ذلك السياسي العظيم وتدعها تنطق بما له وما عليه . قيل إن ضابطاً مدح نابليون قبل معركة في إيطاليا ، فقـال له « انتظر حتى ترى أعمالي » فنحن رأينا أعمال اللورد ورأينـا نتائجها ، فلنستنطقها في الحـكم له أو عليه .

تنقسم أعمال اللورد في مصر قسمين : مالية اقتصادية وسياسية

أما أعماله المالية الاقتصادية فيبتدىء تاريخها في مصر سنة ١٨٧٧ إذ عين عضواً انكليزيًّـا في صندوق الدين المصري ، فأظهر لدولته من صدق النظر وسعة الاطلاع في المسائل المالية ما أنساها القاعدة القائلة أن الذي يربى بين البنادق والمدافع « كالشاب أفلن بارنج » لا يميل به طبعه الى المالية أو السياسة . وفي سنة ١٨٧٩ اتفقت الحـكومتان البريطانية والخديوية على تعيينه مراقباً عامًّـا للمالية المصرية ، لأن انكلترا كانت تهتم مع فرنسا أشد اهتمام بالمالية المصرية صوناً لأموال الانكليز والفرنسويين ، فأظهر براعة كبيرة . وكان في جملة الذين مهدوا السبيل لاصدار قانون التصفيـة[2] الذي ضمن للدائنين الأوربيين أموالهم مع فائدتها . وقبل أن يصدر ذلك القانون حدث أن مالية الهند ارتبكت ارتباكاً شديداً فعينته حكومته عضواً ماليًّـا في المجلس الهندي ، وهنالك لم يفعل الا" ما زاد حكومته ثقة به . ولما

---

(١) نشر بالعدد ٣١ من الجريدة في ١٣ من ابريل سنة ١٩٠٧ بعنوان « لورد كرومر أمام التاريخ »

(٢) في ٢ من ابريل سنة ١٨٧٩ ألفت لجنة للتصفية ، أي تصفية الديون المصرية لاوربا ، "وصدر قانون التصفية في ١٧ من يولية سنة ١٨٧٩ .

تقرر أن يغادر السير ادوارد مالت معتمد انكلترا القطر المصري، لم تجد الحكومة البريطانية رجلاً أخلق بمنصبه من لورد كرومر (وكان لا يزال اسمه السير إفلن بارنج). ولما اجتمع مؤتمر لندرة سنة ١٨٨٤ للنظر في المالية المصرية كان فيه مندوباً محترم الرأي. وكان يقول مثل كل عاقل انه لا يمكن الاصلاح في مصر قبل أن تقوم المالية فيه على أساس متين. ولا تقوم المالية على ذلك الأساس إلا اذا زادت مواردها ووثقت بها أوربا. ولا تزيد مواردها الا اذا تحسنت أحوال الري على الأخص فأصبحت أرض مصر تنبت من الخيرات كل ما تقدر على إنباته. وأما الموارد الأخرى كالجمارك والسكك الحديدية والبوستة وسائر مصادر الدخل، فانها تأتي في المقام الثاني. ولذلك أفرغ كل جهده لدى الدول حتى حملها على عقد قرض خص جزءاً منه بالري.

وما جاءت سنة ١٨٩٩ حتى صار دخل الحكومة ١١٤١٥٠٠٠ جنيه وكان كلما زاد التحسن في المالية زاد في المساعدة على تخفيف الضرائب، غير أن النفقات كانت طائلة بسبب فوائد الديون ونفقات المشروعات.

وكان لدى لورد كرومر مشروعان يؤلمانه ويشكو منهما. أولهما: صندوق الدين. والثاني: وهو متعلق به تخصيص ما قيده قانون التصفية بالديون كالدائرة السنية والدومين ونحو نصف دخل السكك الحديدية، فلم يجد من وسيلة للخلاص من هذين المشروعين سوى الاتفاق مع فرنسا أولاً. وحدث أن جلالة الملك ادوارد مال الى هذا الاتفاق وحببه الى حكومته، فاغتنم كرومر الفرصة وأيده بما استطاع، كما ذكر أخيراً في حديثه مع مراسلي الطان.

أما السبب الذي حمل لورد كرومر على الشكوى من صندوق الدين مراراً في تقاريره، فهو ان الصندوق لم يكن يقدم كل ما تطلبه الحكومة المصرية من الأموال اللازمة للاصلاح. وقيل إن لورد كرومر لما أذن بتأسيس البنك الأهلي وأيده تأييداً معروفاً كان يؤمل أن يقوم يوماً مقام صندوق الدين. وها نحن نرى هذا الأمل يوشك أن يتحقق في الواقع.

ولما تم الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤[1] بين فرنسا وانكلترا كان أول ما فكر فيه اللورد كرومر حل عرى صندوق الدين فرضيت فرنسا بالشروط التي عرضها عليها. ثم وافقت الدول الأخر التي لها أعضاء في ذاك الصندوق، ولا تأتي سنة ١٩١٣ حتى يصبح صندوق الدين أثراً بعد عين يتحدث عنه المصريون كما يتحدثون الآن عن المراقبة الثنائية ومؤتمر لندرة وما شاكلهما. ولقد بات لورد كرومر في راحة عظيمة من الوجهة المالية بفضل ذلك الاتفاق، فلم يعد يرى

(١) اتفاق عقد بين فرنسا وانكلترا بأن تطلق كل منهما يد صاحبتها، تلك في شمال افريقية وهذه في مصر

فرنسا تماكسه كما عاكست في مسألة تحويل الدين ، ولا تشاكسه كما فعلت مع روسيا حين أخذ نصف مليون جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، ثم اضطرّ الى رده بحكم من المحكمة المختلطة . ولا يشك أحد في أن لورد كرومر فاز فوزاً ماليًّا عظيماً بادخال ما أراده من المواد المتعلقة بالمالية المصرية في ذلك الاتفاق . كما فاز مع حكومته فوزاً سياسيًّا بحمل فرنسا على التعهد لهم فيه « بأنها لا تقيم أقل عقبة في سبيل انكلترا بمصر سواء كان بطلب تعيين موعد للجلاء أو غيره »

وكان من سياسته المالية أيضاً — وهو أمرٌ يوجب الشكر الجزيل — ان يرفع أثقال الربا الفاحش عن عواتق الفلاحين فأنشأ البنك الزراعي بعد انشاء البنك الاهلي ونصح للحكومة المصرية وللبنك الأهلي بأن يساعداه حتى يقدم للفلاحين مبالغ صغيرة تسهل عليهم سبيل المعاش ، فأنشىء هذا البنك وجعل من مواد قانونه ان يسلف الفلاحين من عشرة جنيهات الى ٥٠٠ جنيه بفائدة ٩ في المئة ، غير ان بعضهم ينتقد على البنك المذكور بعض أمور ليس هنا محل ايرادها ، وسنعود اليها تحقيقاً للأمنية التي قَصَدَها لورد كرومر من تعضيده وهي صون مصلحة الفلاح من شرّ المرابين .

وليس في وسع أحد ان ينكر النتيجة الباهرة التي وصلت اليها مصر بفضل تلك السياسة المالية ، وإذا كان بعضهم ينتقد تفاصيل صغيرة في بعض المصروفات ، فان كل عاقل ينظر نظرة شاملة صادقة الى تلك السياسة ، يحكم بأن لورد كرومر من أعظم الاقتصاديين وأكابر الماليين فكم زادت مساحة الأراضي المزروعة منذ سنة ١٨٨٣ إلى اليوم ، وكم زادت قيمة الأرض الزراعية وأرض البناء بفضل سياسته . فليس بعجيب ان تعظم ثقة الأوربيين باللورد حتى صاروا يعدون كلمته حجة . أما خلاصة آرائه في الحالة الحاضرة فهي ان هذا النجاح الاقتصادي العظيم قائم على قواعد راسخة ، غير انه يجدر بالمصريين وغيرهم أن لا يتهوّروا في الاقبال على إحدى الشركات قبل أن يدققوا ويفحصوا ويستشيروا حتى يعلموا اذا كانت ثابتة القواعد قوية الأركان . فليعمل المصري بنصيحة ذاك المالي الراحل والشيخ الكبير ، فان تلك النصيحة ثمرة اختبار طويل وتجارب كثيرة .

أعماله السياسية

لا ينكر أحد على لورد كرومر انه سياسي محنك بعيد النظر رحب الصدر ، طويل الأناة ، كما يجب على كل سياسي . غير ان سياسته لا تخلو من أثر العسكرية التي صرف فيها شبابه . نريد انه شديد المراس في مطلبه ، عظيم الاصرار على أمره . يبقى سنوات عديدة يسعى الى

غاية واحدة ويتخذ من كل سانحة حجة وبرهاناً لتأييد رأيه . ولا يدلنا على هذا كله مثل الحوادث التي جرت منذ سنة ١٨٨٤ الى اليوم، ولو اتخذنا من تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط مثلاً ، لكانت برهاناً كافياً على خطته . فانظر كيف انه كان يجاهد جهاداً متواصلاً حتى يستنبط في كل زمن وسيلة جديدة لإرساخ قدم دولته في وادي النيل فسيّر حملة السودان وكان في كل ساعة يستنجد الدماء الانكليزية التي أريقت في أم درمان على كل انكليزي يلفظ كلمة الجلاء . حتى استمال الى رأيه كبار الأحرار والمحافظين فأيده لورد روزبري كما أيده لورد سالسبري ، واستمال اليه لورد لانسدون ، كما استمال سير ادوار غراي ، وبات الأسطول البريطاني العظيم حارساً لما قرره في المسألة المصرية. فما رأينا حكومته ترد له طلباً أو تستنكر عليه سياسة ، ولو بلغت أقصى درجات الشدة . واننا نورد للقارىء هنا مثلاً واحداً لتلك الثقة العظمى بسياسته .

لما وقع الخلاف على تعيين سعادة فخري باشا خلفاً لمصطفى باشا فهمي سنة ١٨٩٣ ذهب لورد كرومر الى عابدين واعترض اعتراضاً شديداً على تعيين فخري باشا وأظهر لسموّ الخديو أن اصراره على رأيه يجعل الأمر خطراً، وأبرز له تلغرافاً من اللورد روزبري ناظر الخارجية يؤيد قوله[1] .

فان معتمداً سياسيًّا يجد من حكومته مثل هذا التعضيد في مثل هذا الحادث يستشعر نفسه من نفسه حزماً وان يكن بلا حزم . فكيف برجل عسكري مثل لورد كرومر . واذا أراد المطالع برهاناً آخر على تقديس حكومته لكل رأي من آراء لورد كرومر في المسائل المصرية فليذكر حادثة فاشوده[2] التي كادت تضرم نار الحرب بين انكلترا وفرنسا، وما تلك الحادثة وطرد كولونل مرشان ورجاله إلاّ تأييداً لسياسة لورد كرومر، وما الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانكلترا بعد تلك الحادثة على مناطق السودان إلاّ بناء على رأي لورد كرومر أيضاً فكان تمهيداً لاتفاق أكبر وخطوة أوسع في سبيل التقرب بعد ذاك التباعد بين الدولتين.

---

(١) اسقط الخديو عباس وزارة مصطفى باشا فهمي في يناير سنة ١٨٩٣ وعين فخري باشا رئيساً للوزارة وأراد بذلك ان يحقق سلطته الشرعية . فعل ذلك من غير علم كرومر ، فامتنع كرومر عن الاعتراف بالوزارة الجديدة قبل أن يعرف رأي حكومته ، وانتهى الامر بأن عدل عن تعيين فخري باشا وعين رياض باشا رئيس وزارة .

(٢) وقعت حادثة فاشودة في اكتوبر سنة ١٨٩٨ ، اذ احتل الكولونل مارشان بفرقة من الجنود الفرنسية جزءاً قال الانجليز انه تابع للسودان وان لمصر حقوق السيادة عليه . وقد بلغ النزاع بين بريطانيا وفرنسا مبلغاً كادت تقوم من ورائه حرب بين الدولتين .

ولما عقد ذاك الاتفاق، أي اتفاق سنة ١٩٠٤، استراح اللورد من المسألة المالية الدولية في هذا القطر، كما استراحت دولته من المعارضة السياسية، ثم التفت الى المسألة الدولية القانونية فكتب في العام الماضي فصلاً طويلاً عن وجوب تغيير الطريقة القديمة في الامتيازات الأجنبية، ثم نشر في هذا العام الفصل الضافي الذي اطلع عليه القراء، فكانت حملاته على طريقة الامتيازات متتابعة كحملاته على صندوق الدين قبل أن نال مراده.

وليس بنا من حاجة الى زيادة الاسهاب في هذا الباب فان كل خطبة لرجال الحكومة الانكليزية، وكل تقرير من تقارير لورد كرومر، وكل أثر من آثاره السياسية، يظهر حقيقة تلك السياسة التي اتبعها الشيخ الراحل. ولقد كان تقريره الأخير كوصية سياسية قبل رحيله عن هذا الوادي. ويعلم المطالع مما نشرناه أن اللورد لا ينصح لدولته في تلك الوصية ببسط الحماية على مصر، لأن بسطها يقضي بتغير في الحالة السياسة مع أن انكلترا تعهدت في الاتفاق الانكليزي الفرنسوي بأنها لا تغير شيئاً من تلك الحالة كما تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انكلترا في القطر المصري.

نتيجة تلك السياسة

فما هي نتيجة تلك السياسة كلها؟ نتيجتها اننا اذا نظرنا اليه بعين انكليزي فلا يسعنا سوى الثناء عليه. أما اذا نظرنا اليه بالعين التي يجب على المصري أن ينظر بها إلى مصلحة وطنه، فلا يمكننا أن نصوغ له شيئاً من الثناء على عمله السياسي في مصر، فانه حرم مصر من حياة سياسية تطمح اليها كل أمة حية. وإذا كنا لا نستطيع سوى الاعتراف بأن اللورد وسع نطاق الحرية الشخصية، فلا يمكننا أن ننكر أنه فعل العكس كل العكس مع موظفي الحكومة من المصريين فنزع حريتهم وسلطتهم ونفوذهم، والقاها في أيدي الموظفين الانكليز، فحبات كثير من أذكياء الشبان المصريين ينفرون من وظائف الحكومة. ولا أدل على هذا كله من شدة احتياج الحكومة الى موظفين ومستخدمين. ولا نظن أن قلة الكفاءة التي يذكرها اللورد في تقريره إلا نتيجة التعليم الناقص وسوء معاملة الموظفين والمستخدمين في الحكومة وربما كان يرى خذلان التعليم الصالح موافقاً لمصلحة بريطانيا العظمى لأن جناب اللورد ينظر في كل أمر إلى مصلحة دولته قبل كل شيء: سنة الوطني الغيور على وطنه. وانه لمن هذا الطراز كلامه عن الوحدة الاسلامية وعن وجود التعصب لها في القطر المصري، مع أن التعصب ليس له فيه أثر على الاطلاق، ولكن هي المصلحة البريطانية تريد أن تمثله هائلاً

مخيفاً . ومن هذا الطراز أيضاً كل عمل وكل اتفاق وكل خطوة وكل حركة لذلك السياسي الانكليزي العظيم .

وربما كان في وسع جناب اللورد أن يحصل لدولته على أكثر من الفوائد التي حصل عليها لو أنه صرف همته أيضاً في كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم، بأن وضع للتعليم العام قواعد تجعله منتجاً مفيداً للامة، ودفع عن المعارف العمومية من كان يناهضها . واعتمد في الاصلاح على أكفاء المصريين ورشحهم بحرية العمل الى حسن الادارة ورغب عن محو الجنسية المصرية الصميمة بما قال من انشاء جنسية دولية لمصر [1] . لا شك انه بذلك كان يكسب لدولته صداقة الأمة المصرية ولشخصه ثناء من المصريين يعادل ثناءهم عليه لعمله على نمو الحرية الشخصية واحترام الحق والمساواة بين طبقات الأمة .

(١) انظر الى أي حد بلغت صفاقة هذا اللورد .

— ٢ —

للسياسة الانكليزية عدة مزايا [١] أو بالأولى عدة قوى متماسكة متضامنة يتألف من مجموعها تلك السياسة التي تحكم على خمس العالم . وإحدى تلك المزايا انها لا تنقل سفيراً في عاصمة ولا حاكماً في مستعمرة ولا معتمداً في بلد، الاّ إذا قضت الدواعي القاهرة كما حدث للورد كرومر معتمدها في القاهرة . فان هذا السياسي الكبير يقيم في العاصمة المصرية منذ بضعة وعشرين عاماً . ولولا طول إقامته لما تمكن من اظهار مقدرته . لأن النقل يقطع على السياسي سلسلة أفكاره التي يتمكن بها من الصعود إلى أعلى مراتب العلاء . فلورد كرومر كان كبيراً بثلاث : مقدرته الشخصية ، ومساعدة دولته له بكل قواها ، وسعة الوقت الذي انفسح له في مصر . وكل من يرسل نظرة شاملة إلى أعمال لورد كرومر منذ تعيينه معتمداً لدولته في هذا الوادي، يجد أن تلك المزية في السياسة الانكليزية ساعدته أعظم مساعدة لأنها مكنته من اتمام سلسلة أعماله حلقة فحلقة ، والرجل كما يشهد له الخصوم قبل الأحباب بعيد مرمى النظر، طويل حبل الصبر، فكان كل عمل يأتيه تمهيداً لما يأتي بعده وتوطئة لسبيل الغرض الذي وضعه نصب عينيه . فما وافق على ترك السودان في أوائل عهد الاحتلال إلاّ ليبقي استئناف الحملة على تلك البلاد وسيلة جديدة بين يدي الاحتلال يتوصل بها لزيادة توطيد القدم الانكليزية عند الفرصة الموافقة ، فعرضت له تلك الفرصة سنة ١٨٩٥ حين علم بسير مارشان نحو السودان المصري . وما عقد بعد فاشوده الاتفاق السوداني مع فرنسا إلاّ ليزيل ما بقي من آثار الاستياء في نفوس الفرنسويين بعد تلك الحادثة ، ويمهد السبيل لاطلاق يد الاحتلال في المالية داخل القطر، واطلاق يد حكومته من الوجهة السياسية، فكان له ما أراد باتفاق سنة ١٩٠٤ مع فرنسا ، ثم بموافقة سائر الدول صاحبات الشأن في صندوق الدين على ما يتعلق بمصر، فتزعزع من تلك الساعة أساس هذا الصندوق . وما مدّ اللورد يمين المساعدة في ذلك الاتفاق اكتفاءً بمزاياه فقط، بل قال في نفسه نحن نغنم ما يقدمه

(١) نشر بالعدد ٣٣ من الجريدة في ١٦ من ابريل سنة ١٩٠٧ تحت عنوان خواطر وآراء : أو مزية من مزايا السياسة الانكليزية »

من المزايا السياسية والمادية ، ثم نجعله تمهيداً جديداً لمشروع آخر عظيم ، هو تغيير طريقة الامتيازات في مصر ، وحصر السلطة التشريعية في قبضة بريطانيا العظمى ، وما نَيْل هذا المراد بالأمر المستحيل ما دام الاتفاق الوُدّي موجوداً بين لندرا وباريس .

وحسبنا ما تقدم دليلاً ساطعاً على تماسك مشروعات لورد كرومر منذ سنة ١٨٨٤ إلى اليوم، وقس عليه سائر ما جرى . فلو لم يكن للسياسة الانكليزية تلك المزية لما وصل اللورد الى النتيجة التي ينظر اليها اليوم وهو باسم الثغر ،طلق المحيا، لأنها جعلته عظيماً في نظر دولته ونظر العالم .

ولا ننكر ان الحكومة الانكليزية ، حرّة كانت أو محافظة ، يتفق لها أن تنقل سفيراً أو معتمداً أو حاكماً بعد تعينه بزمن قصير ،ولكن هذا نادر عندها بقدر ما هو غالب عند بعض الدول الأخرى .

وبناءً على الخطة التقليدية التي تسير عليها انكلترا مع سفرائها ومعتمديها لا نرى وجهاً للاجتهاد في البحث والتنقيب عن سبب خفي في استقالة لورد كرومر ، فان جميع الدلائل التي ظهرت حتى الآن تدلنا على أن استقالة اللورد مسببة عن اعتلال صحته ، ولولا ذلك لما كان اللورد يقول للسير ادوارد غراي في التلغراف الذي أرسله إلى نظارة الخارجية « ويهمني كثيراً أن يعلم أن الأسباب التي حملتني على اتخاذ هذه الخطة انما هي أسباب صحية لا غير » . وزد على هذا كله أن صحة اللورد بقيت مدة قبل استقالته وهي تنحرف بين حين وآخر كما ذكرت الجرائد المحلية . والمستفاد من أقوال الطبيبين اللذين فحصا اللورد ان شفاءه مأمول بعد راحة طويلة لأن كل ما يشكو منه ضعف شديد في الأعصاب فلابدَّ إذاً أن نسمع للورد صوتاً في مجلس الأعيان الانكليزي بعد أن يتم له الشفاء . وسيبقى محترم الكلمة عند قومه في جميع المسائل المصرية على وجهٍ أخص . ولا نظن أن رجلاً صرف معظم حياته في عمل كبير يستطيع أن ينساه أو يحجم عن الاهتمام بكل ما يتعلق به ويرجع اليه .

— ٣ —

استقال لورد كرومر[1] مصرحاً للملأ هو وحكومة الانكليز بأن أسباب استقالته صحية صرفة ، وعلقت الجرائد على نبأ استقالته بما للرجل وما عليه ، ولكنها أبت إلاّ المنافشة في هذه الاستقالة حتى قال بعضهم أن سببها خلاف قام بينه وبين الوزارة على خطته السياسية في مصر . ولكن الذين يدّعون هذا السبب لا يقولون بأن الوزارة الانكليزية قررت مبدءاً جديداً للاحتلال غير مبدئه القديم في انه مرجع كل الأمور . ولا يقولون بأن الوزارة الانكليزية كلفت العميد الجديد أن يترك مصر لسمو الأمير يتصرف فيها بما يشاء .

وما دام أنه لم يكن من ذلك شيء ، فالانكليز بالأمس هم الانكليز اليوم . وهم الانكليز غداً — منهم ترجى المنفعة ، واليهم ترجع الأمور ، فلا يسكن أمر هذه الحركة التي لا أصل لها ، إلا ونرى أصحاب الحاجات يؤمون قصر الدبارة والجرائد تنشر الكتب المفتوحة والمقالات الضافية تبسط فيها مطالب الأمة لعميد الاحتلال — ولا يكون وراء كل هذا إلا مصداق ما قلنا يوم الاستقالة « انكليزي يخلف انكليزيًّا » غير أن المتتبع لهذه الحركة الباطلة والشغب المستمر يكاد يقع في وهمه أن وراء الأكمة ما وراءها من تبدل الأحوال واحياء الآمال وبوارق الاستقلال . لأن الجرائد الملقبة بالوطنية على اختلاف نزعتها أخذت تأمر الناس أن لا يعترفوا للورد كرومر بحسنة مطلقاً فلا يزورونه كما كانوا ولا يودّعونه كما يجب على المقيم للمسافر ، وان يختموا على أفواههم بخاتم الخوف من التغيير والتشهير ، فلا ينطقوا إلاّ بما يرضي تلك الجرائد من ألفاظ معاداة اللورد المسافر وقومه المقيمين . وبالجملة فانه يفهم من قولها إننا قطعنا العلاقات بيننا وبين الانكليز .

لم يكن شيء من ذلك كله ولم تتغير الحال عن أصلها . وانا تلقاء ذلك لا نخلو سياستنا مع الانكليز من أحد وصفين : إما سياسة معاندة وعداء ، أو سياسة مسالمة لا استسلام . وقد علم العقلاء وجرّبوا سياسة المعاندة مع بضع عشرة سنة قد جرّت بنا من الوجهة الادارية والسياسية إلى هذه الحال التي نألم لها جميعاً كل الألم ، والتي لم يبق معها لنا من ادارة بلادنا إلاّ محض تنفيذ أوامر الاحتلال في كبير المسائل وصغيرها . ولا شك في ان هذه السياسة سياسة المعاندة عقيمة . إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حساباً على أعماله . بل كيف يرجو العدوّ من العدوّ إصلاحاً لحاله . أما والله إنا على هذا المذهب لا يمكننا أن نتقدم في مدارج الرقي الأدبي والسياسي شبراً ما دام الحال على ما نرى من التقاطع وسوء التفاهم من الجانبين .

(١) نشر بالعدد ٤٤ من الجريدة في ٣٠ ابريل ١٩٠٧ بعنوان « المسالمة لا المعاندة : وداع لورد كرومر »

فلم يبقَ إلاّ سياسة المسالمة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة، وأول مظاهرها المجاملة في المعاملة، ومن هذا النوع يكون اهتمام العقلاء بالاحتفال بوداع لورد كرومر.

رحماكم يا أرباب الأقلام لا تغرّروا بهذه الأمة التعيسة، ولا تكونوا للزمان عوناً عليها، واخلصوا لها النصح، وذروها في هذه الفترة هادئة، تتكوّن قوتها من الباقيات لا من الكلمات الطائحات، واعطوا العقول حقها من حرية التفكير، والألسن قسطها من حرية القول، والنفوس أمرها من الجرأة، وبينوا لها الفرق بين مواطن الانتقام ومواطن التكريم. وبين انتقاص الأشخاص وانتقاد الأعمال، ولا تكن الأقلام في أيديكم كالمعاول يهدم بها بناء الأخلاق، أو كالحجب يستر وراءها ضياء الحق، أو السهام تهلهل بها أعراض الأشخاص. وإلاّ فما بال بعض الجرائد أخذت تشهر ببعض الكبراء الذين انضموا إلى لجنة الاحتفال وتغمزهم كل يوم بضروب من ألفاظ السخرية غير اللائقة، حتى ذكر بعضها بالأمس أسماء غير الموظفين لتعرّف بهم القراء، واعتذرت عن الموظفين بأنهم موظفون. وكأنها تريد بذلك أن ليس لمن يوجد في لجنة الاحتفال أو يحضر الاحتفال شيء من الارادة أو الاستقلال الذاتي. ولا يخفى ما في ذلك من تجريد فضلائنا وعظام موظفينا وكبرائنا من الاختيار الذاتي. فبمن يكون الرقي الذي نؤمله !!! ثم هي لم تحترم الحقيقة فيما أسندته إلى النظار من أنهم يطوفون ببيوت الأعيان فيحملونهم على الاشتراك في الاحتفال بوداع لورد كرومر والوزراء يكذّبون ذلك علناً على صفحات الجرائد، ويتبرأون من أنهم يحملون أحداً على غير ما يريد.

أخبرنا أحد الوزراء وقد كنا سألناه عن هذا الخبر الذي أجمعت عليه « الجرائد المُتسحابّة » في يوم واحد فأكد لنا ان الخبر عار عن الصحة، وإنه لم يخاطب أحد من الناس في هذا الصدد. ثم قال وإني مع ذلك لا أرى مانعاً في نظر المروءة وحسن الأخلاق ولا في عرف الوطنية يمنع الناظر من أن ينبه غيره إلى أداء واجب هو نفسه يقوم به.

وفي الواقع فان الأمر أشهر من أن يتستر له، وأهون من أن يحتمل الدعوة اليه أي كتمان. وأبعد من أن تعتبر الصحف مطعناً على صدق وطنية القائمين به. قال أحد علماء الاجتماع: «ان الاعتراف بالجميل هو الاحساس بانتظار جميل آخر في المستقبل». فاذا كانت الجرائد تريد من الناس أن لا يحتفلوا بوداع اللورد إظهاراً لعدم رضاهم عن الادارة الانكليزية في عهده، وكان الناس في بلدنا على مذهب ذلك الاجتماع وانهم لا يعملون العرف لذاته بل للاتجار به، أفليس من المصلحة ان يحتفلوا باللورد لينتظروا بذلك خيراً من خلفه الذي يجب أن يعتبر الاحتفال باللورد ومجاملته مجاملة له هو وجميع الانكليز في مصر أيضاً؟

استقال لورد كرومر فكنّا أول من نشر الى الملأ الانتقاد المرّ على أعماله وأقواله التي

لا توافق مصلحتنا مقرونة بالاعتراف له بأعماله التي فيها صلاح لمصر . ولكن شخص لورد كرومر ومركزه والرابطة التي بين الأمة المصرية وأمته ، ووجوب صفاء العلاقات بين الأمتين لمصلحة الطرفين : كل ذلك يلوي بنا عن ان نكون من المعوّقين في الاحتفال بوداعه واكرام ضيافته، وتشييعه بما شاءت المحاسنة القومية والكرامة العربية .

كان لورد كرومر المستبد بالسلطة ، الآمر الناهي الذي يطلب منه ايصال الخير كما يطلب منه دفع الشر، حتى لقد كان بعضهم يستغيث به من المعية ليكشف عنه ظلامته . وكان بذلك مأموم الجناب من أصحاب الحاجات من الأمراء الى الفقراء ، فعلا نفوذه في البلد حتى لترى أصغر الفلاحين متى سرقت ماشيته أو أتلف زرعه قدّم عريضة للورد كرومر. أصبح اللورد في مصر ضيفاً لا يملك من سلطانه شيئاً . لا اتصال له بالاحتلال الانكليزي والسلطة الانكليزية في مصر إلاّ كاتصال أحد الرجال المعوّل على رأيهم في بلاد الانكليز، ولا صلة بينه وبين الأمة المصرية إلاّ ما يبقى من الرابطة بين رجل أقام في أمة زمناً طويلاً فترك فيها أثراً سياسيًّا من الأعمال الصالحة وغير الصالحة يسجله التاريخ ، وأثراً اخلاقيًّا يذكر به شخصه بخير ممن لاقوا خيراً .

وما الأمة المصرية تلقاء سفر هذا الرجل الكبير إلاّ إحدى اثنتين : سياسية تنظر في مآل الأمور من الوجهة السياسية ، أو غير سياسية تنظر في أخلاق الرجل من حيث هو — فان كانت الأولى وجب أن تعرف أن لليوم غداً ، وأن هذا الأمر له ما بعده . وأن قاعدة سياستها مع المحتلين هي المحاسنة دون المعاداة . وأن معاداة القوي بوار ونقص من العلم بالمصلحة ، وأن المظاهرة ضد لورد كرومر ظهور بالعداء ونكران للجميل في وجه الأمة المحتلة في غير جدوى . وبذلك يكون الواجب عليها ان لا تمتعض من الاحتفال بوداع لورد كرومر وان تقوم له بالمجاملة السياسية الواجبة بين الأمتين المرتبطتين اقتداءً بسموّ الأمير .

وان كانت الثانية كان من الواجب عليها وهي تعترف للرجل بكرامته ونزاهته وبشيء كثير صالح من أعماله ، ان لا تخشى في إظهار الاعتراف بالجميل لوم اللائمين . ولا ندري كيف ان السير سكوت والسير غورست عند مفارقتهما لمصر وكانا مرؤوسي لورد كرومر وسياستهما سياسته وعملهما منسوب اليه يعاملان بغير ما يعامل به لورد كرومر نفسه الذي قال فيه شاعرنا المجيد حافظ : «حقيق بتشييع المحبين والعدا» .

فلتطب الأمة نفساً فما كان كبراؤها ووزراؤها ليجمعوا إلاّ على ما يؤيد شهرتها بكرم الأخلاق وحسن المجاملة ولينفق كلٌّ ما شاء في بناء ملجأ المصدورين الذي يظهر أن الرأي سيسخط على إنشائه تذكاراً للورد كرومر . وليطرح كل حرّ تهديد الصحف ووعيدها . ولا يسمع إلاّ ما يمليه عليه وجدانه دون ما يكرهه عليه غيره ، فان الحرية في القول والعمل أغلى من أن تباع بالبقاء ، فكيف تباع بالترغيب في خير أو بالأمن من تهديد أو وعيد .

— ٤ —

ما حلت الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر أمس[1] حتى ازدحم الناس بالشرفات والقهوات المجاورة للأبرا الخديوية واصطف البوليس أمام مدخلها وأخذت مركبات الكبراء والوجهاء تدرج بهم نحوها مثنى وثلاث. فلم تقترب الساعة السادسة حتى امتلأت أرواج الأبرا ومقاعدها ومرسحها الفسيح بكل ذي منصب ومقام من مصريين وأجانب. ولا يسمح المقام أن نذكر كل عظيم ووجيه من الذين حضروا فنكتفي بذكر أصحاب الدولة البرنس حسين باشا كامل عم الجناب العالي، والبرنس عباس حليم باشا، والبرنس سعيد حليم باشا، وعطوفتلو مصطفى باشا فهمي وسائر النظار، وجميع أعضاء لجنة الاحتفال، وأصحاب السعادة زكي باشا، ووطسن باشا، والسير ريجينالد باشا حاكم السودان العام، والجنرال بلوك قائد جيش الاحتلال، وأكثر قناصل الدول الجنرالية، وحضرات المستشارين ووكلاء النظارات، وسعادة محمود باشا سليمان، وكثير من أعضاء مجلس الشورى والأعيان، وعدد من السيدات الأوربيات. وما حلت الساعة السادسة تماماً حتى وصل جناب اللورد كرومر، والسير إلدن غورست وقرينتاهما، وبعض السيدات الكرائم، فدخلت اللادي كرومر، واللادي غورست ومن معهما من السيدات الى اللوج الخديوي، وأقبل جناب اللورد كرومر والسير إلدن غورست على صدر المرسح حيث أعدّت الكراسي الجميلة المذهبة فعزفت الموسيقى بسلام ملك الانكليز، فوقف الحاضرون كلهم وهتفوا مراراً ترحيباً باللورد فردّ لهم التحية باسم الثغر، طلق المحيا، ثم جلس على الكرسي الذي أعدّ له في صدر المرسح وجلس إلى يمينه صاحب العطوفة مصطفى باشا فهمي، والكونت دي ساريون، وسعادة بطرس باشا غالي. وعلى مقربة دولتلو رياض باشا. وجلس الى شماله جناب السير إلدن غورست، وعلى مقربة أصحاب السعادة السردار، وسعد باشا زغلول، ونخري باشا، ومظلوم باشا. ووراءهم بقية أعضاء اللجنة وجملة من الوجهاء وأعضاء مجلس الشورى والأعيان والأدباء. ولما استقرّ المقام بذاك الجمهور الخطير وقف جناب الكونت دي ساريون مدير شركة قنال السويس وألقى الخطبة الآتية بالنيابة عن جميع النزلاء الأوربيين في القطر:

يا جناب اللورد — إن اللجنة التي تألفت في اليوم التالي ليوم النبأ المتعلق بقرب

(١) نشر بالعدد ٤٨ من الجريدة في ٥ من مايو ١٩٠٧ بعنوان «حفلة توديع اللورد كرومر»

سفركم تمثل جميع الذين يرتبطون برابطة الأسف البالغ والاعتراف بالجميل من غير تمييز بين الملل والأجناس ، ويريدون أن يوضحوا لكم على رؤوس الملأ ما خامرهم من الاستياء لأن أسباباً صحية تحملكم على قطع سلسلة من الأعمال تتصل أشد اتصال من نحو ثلاثين عاماً بالبحث عن ضروب النجاح من كل نوع وبإخراجها الى حيز التنفيذ كما يشهد لكم اليوم نجاح القطر المصري .

ان صاحب العطوفة مصطفى باشا فهمي سيخاطب جنابكم عما قليل باسم المصريين وموظفي الحكومة المصرية . أما أنا فعليّ أن أفصح لكم باسم اللجنة (التي أسدي اليها الشكر من صميم القلب لأنها خوّلتني هذا الشرف) عن عواطف الذين يودّون من لباب الفؤاد أن يظهروا الأسف لفراقكم ، والاعتراف بجميلكم ، وان كانوا لا يرتبطون برابطة الجنسية المصرية والمصالح العمومية في هذا القطر .

وأنتم أيها السادة : لا تنتظرون مني أن أعدّد لكم هنا ما أداه اللورد كرومر لمصر من الخدمات التي لا تحصى منذ دعي للمساعدة في ادارتها كعضو في صندوق الدين الى هذه الساعة التي سيتركنا فيها محفوفاً بالإعجاب والإحترام . وهذا الإعجاب الممزوج باحترامنا لشخصه هو أدل ألف مرة من كل الكلمات التي يمكنني أن استخدمها لأصف سلسلة أعماله التي أصبحت مما يدوّن في التاريخ . واني لا أخشى أن أخرج بتعداد تلك الأعمال المهمة عن الحدود التي رسمت لي فان الذين أتكلم باسمهم أخذوا مهمهم كما أخذ الوطنيون نفوسهم من ضروب النجاح التي لا تحصى والتي جعلت وادي النيل من أكثر بلدان العالم تقدماً وسعادة . وربما كان أحسن البلدان ضيافة ، فيحق لهم إذاً بل يجب عليهم قياماً بما يلزمهم من الاعتراف بالجميل أن يشاركوا الذين يعدّدون ما قام به اللورد من الأعمال العجيبة في وحدة غايتها وفي ما صرفه فيها من الجهد العظيم الفعال

على أني لا أريد أن أدخل الآن في تفصيل الأعمال المختلفة الأنواع التي يرجع الفضل فيها الى ما قدّمه اللورد كرومر من النصائح الرشيدة التي مكنت الأجانب — كما نعلم جميعاً — من الاشتراك الكبير في إسعاد البلاد تحت ظلال من الأمن والتسامح يصعب أن نرى لها مثيلاً في جهة أخرى من الكرة الأرضية . ولكني أسألكم السماح بأن أشير اشارة فقط الى نظام جديد متسع تركه جناب اللورد قبل اخراجه من حيز المشروع إلى حيز العمل .

ولا ريب ياجناب اللورد إنك تمج كلامي وتحمله على محمل التزلف — مع ان التزلف لا ينطبق على اخلاصي في الكلام — إذا كنت أقول لجنابك ان جميع النزلاء الأوربيين

يرجون كل الرجاء ان يتحقق مشروعك [1] لا سيما وانه ليس لي صفة تمكنني من مثل هذا القول . ولكن ما أشعر إنني مفوض فيه تمام التفويض هو ان أظهر لجنابك كم تأثرنا جميعنا بلا استثناء من الاهتمام الذي أظهرته عند إعداد ذلك المشروع باستطلاع آراء العدد العظيم منا، وكم أشعرتم الأوربيين بأنكم تريدون أن تشتغلوا معهم في زيادة تحسين حالتهم من الوجهتين الأوربية والمادية .

مهلا لا تخافوا أيها السادة أن أسهب في هذا الموضوع الذي يدخل، سواء أردنا أو لم نرد في السياسة العالية . ولم يذهب عني أننا لا نقيم يا جناب اللورد هذه المظاهرة التي قصد الاجتماع لها كل الطبقات والطوائف ساعة رحيلك عن الأرض المصرية الجميلة التي تجود على الانسان بأثمن كنوزها — إلاّ لنظهر لك ان عرفان الجميل المقرون بالادراك وشرف النفس ينمو في مصر تحت شمسها الوهابة للخيرات، كما تنمو في أرضها أنواع المحاصيل : فنحن إذاً نقدم لجنابك في هذا الآن الذي يتنازعنا فيها عاملا المسرّة والحزن، أجمل ثمرة يمكنها أن تشرح صدرك .

وبعد فلتسمح لي يا جناب اللورد أن أقرن باسمك في اظهار أسفنا وانعطافنا واحترامنا اسم تلك التي ساعدت مساعدة كبيرة النفع بلطفها وشفقتها التي لا تعادلها إلاّ ما اتصفت أنت به من الصفات الحازمة التي رفعت شأن مهمتك في هذا القطر. فان اسم اللادي كرومر سيبقى في ذاكرتنا صورة حيّة لطيبة النفس وستمثلها على الدوام منعطفة انعطافاً لطيفاً الى مؤاساة البؤساء وتخفيف الآلام عن نفوسهم . ونحن ندعو لها كما ندعو لجنابك من صميم الأفئدة المتحدة بأن تعود اليك الصحة والعافية وإذا أجيبت دعواتنا فانك تتمتع بأجمل مكافأة يمكن المرء أن يتمتع بها في الدنيا وهي أن تنظر وأنت في اعتزالك الهنيء إلى جني ثمار البذور التي زرعتها في وادي النيل .

أيها السادة : لقد انتهيت من الكلام لكن اللورد كرومر يسمح لي ولا شك بان أضيف كلمتين فقط الى ما قلته ، وان تعرّضت بقولها للإخلال قليلاً بالنظام الذي رسم لي ! فإني تكلمت باسم لجنة الشرف العامة التي أشرت الى تأليفها ولكن يلوح لي اني لا أقوم بكل مهمتي اذا كنت لا أرفع الى جنابك اكرام لجنة أخرى شرّفتني بانتخابي رئيساً لها وهي تتألف من أعيان الأوربيين في القاهرة فقط ولا تشغل وظائف رسمية ولم تنشأ الظهور منذ

(١) مشروع تعديل الامتيازات الاجنبية وكان كرومر يحاول أن يؤلف مجلس تشريع دولي فيتخلص من الامتيازات ويتخلص من شخصية التشريع المصري والقضاء المصري ، ومن ثمت يمد يده الى الناحيتين فيقبض عليهما بيد بريطانيا الحديدية ، فما أعظم حيله امير والمصريين وما أسلم نوايا اللورد الكبير !!! .

تنظيم المظاهرة الحاضرة لأنها أعم وأوفى بالغرض . بيد اني لا أريد أن ألقي باسم تلك اللجنة خطبة خصوصية لأنها تكون عبارة عن ترديد ما قلته الآن ، وانما أقول لجنابك كلمتين وآمل أن تبقيا في ذاكرتك « وهما الأسف وعرفان الجميل » وإذا كنت قد تجاوزت حد وظيفتي كخطيب رسمي فأشرت الى عمل تلك اللجنة الخاص فما ذلك الا لانه كان في عداد واجبات الشكر التي كلفت بتقديمها لجنابكم .

أما الكلمة الثانية فتتعلق بشخصي وهي انه يستحيل عليَّ أن أعود الى الجلوس بعد ما تكلمت باسم الذين فوَّضوا اليَّ الافصاح عن عواطفهم بدون أن أظهر السرور الأسمى بجعل هذا الشرف لرجل فرنسوي . ويلوح لي أنني أكون ناكر الجميل اذا كنت لا أعرب جهاراً عن الشكر لزملائي أعضاء اللجنتين على اختياري مندوباً لمخاطبة رجل سياسي يعد في المرتبة الأولى بين الذين ساعدوا مساعدة فعالة في إبرام ما اتفقوا على تسميته « بالاتفاق الودادي »[1]

ثم وقف جناب اللورد بين أصوات الهتاف وألقى خطبة وجيزة بالفرنسوية هذا تعريبها نقلاً عن المقطم الذي صدر أمس مساء :

جناب الكونت وحضرات السادة الكرام : لست آسف في هذه الساعة من شيء سوى قصور معرفتي باللغة الفرنسوية البديعة عن التعبير اللائق عن كل ما أشعر به في قلبي . فأرجو يا جناب الكونت أن تعتقدوا أني أشكركم خالص الشكر بالاصالة عن نفسي والنيابة عن اللادي كرومر ، على ما فهتم به الآن من الكلام المتناهي في اللطف وحسن الانعطاف ، وماذا أقول أيها السادة في مقابلتكم لخطبة الكونت دوسريون وما فيها من فرط المديح . إني أشعر كمن كشف له سرٌّ عظيم ، إذ لم أكن أعلم أن لي أصدقاء هذا عددهم وهذا مقدار حبهم وكرم أخلاقهم . والذي يؤثر فيَّ خصوصاً أيها السادة ان هذه الحفلة جامعة لأناس من أمم عديدة فهي بهذا الاعتبار حفلة مختلطة أو دولية (في اصطلاح كتاب العربية) فأستميحكم في استنتاج هذه النتيجة مما رأيته منكم فيها وهي اني رغماً عن الصعوبات الكثيرة التي لا تفارق مركزاً مثل المركز الذي قضيت فيه ٢٤ سنة لم أكن في اعتبار جماعة من ذوي الرأي الصائب منكم بالرجل الرديء دولياً . والواقع اني كنت أقول في نفسي دائماً إن أول واجب عليَّ هو فعل كل ما يطلب فعله مني للدفاع عن مصالح بلادي ومصالح مصر . وانما وضعت بريطانيا العظمى ومصر في كفة واحدة لاني آبى أن أعتبر كلا منهما على حدة ، إذ

(١) يقصد اتفاقية سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلترا ، وهي اتفاقية من الاتفاقيات الاستعمارية الذائعة التي تجلى فيها روح الاعتداء على شعوب شمال افريقية من حدود مصر الى المحيط الاطلنطي ، ولا تزال هذه الشعوب ترزح تحت نيرها الى الآن .

كل من يدرك حقيقة مصالحهما يعدها مصالح واحدة[1].

على اني علاوة على كوني انكليزيًّا — بل انكليزيًّا مصريًّا — لم أنس قط اني أوربي أيضاً. وان رغد عيش الجاليات الأوربية العديدة المهمة النازلة في هـذا القطر يعد مصلحة مصرية وبالتـالي مصلحة بريطانية من الطبقة الأولى. وأنا أغادر مصر مقتنعاً بصحة هذه القضية كل الاقتنـاع، واذا سنحت فرصـة، أو اقتضت ضرورة، فلست أتغاضى عن الدفاع عنها.

هذا وأعيد لـكم أيها السادة شكري الصادر من صميم فؤادي راجياً أن تسبلوا ذيل المعذرة على هذه العبارات المختصرة، وسأتشرف بعد قليل بمخاطبتـكم باللغة الانكليزية.

خطبة مصطفى باشا فهمي

يا جناب اللورد:

بلسان الحـكومة وبلسان السواد الأعظم من الأمة المصرية أبدي لجنابكم شعائر الأسف الأكيد على مفارقتكم هذه الديار، أسف تتزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث الذي أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التي ضحيتموها باحتمال المشاق ومواصلة الأتعاب في سبيل القيام بما فرضه عليـكم حبكم لهذه البلاد وتفانيكم في المساعدة على توطيد قواعد الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل، ولم تنس مصر أن حسن الحال الذي وصلت اليه والذي استوجب الإعجاب العام، هو نتيجة ارشاداتـكم السديدة ومؤازرتـكم الأكيدة.

نعم إن التاريخ خير كفيل بتسجيل ما أحرزته من أسباب التقدم والارتقاء لتقدير هذه المـآثر قدرها من الإكبار والإجلال، ولكن لي كلمة أقولها الآن بوجه الاجمال وهي ان الفلاح المصري قد جنى ثمرات هذا الاصلاح وأحسَّ بنعمة هذا الاسعاد ماديًّا وأدبيًّا بأكثر من كل انسان سواه.

هذا العمل المجيد سيخلد اسمـكم الـكريم ويدعو مصر اليوم كما انه يدعوها في مستقبل الأيام الى الاعتراف لـكم بهذا الجميل.

وفي هذا المقام أعرب أيضاً عن أسفنا لمفارقة اللادي كرومر التي استأثرت قلوب البائسين بحنانها واحسانها، وخففت مصابهم بحسن مؤاساتها فاستحقت بهذا الصنيع شكر الخاص والعام

(١) ليس هذا القول الذي كمن في سياسة لورد كرومر من سنة ١٨٨٤ الى سنة ١٩٠٧ يبرر أبين تعبير عن السياسة البريطانية التي اتبعت أزاء مصر من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٤٦ وتجلت في كل الظروف والاحوال. ظهرت في تقرير لورد ملنر وفي جميع المحاولات التي دارت بين حكومات مصر وبريطانيا وفي معاهدة ١٩٣٦، وهي بنفسها التي تجول الآن وتصول في مفاوضات ١٩٤٦، ومحورها مركز الدفاع المشترك الذي يمض عليه الانجليز بالنواجذ؟

انكم يا جناب اللورد قد أخلصتم لمصر الود وجعلتم أجمل سني حياتكم وقفاً على خدمتها فصرنا على يقين تام بأنكم ستوالونا بعنايتكم على الدوام ، بما لنا على ذلك من الشواهد العديدة .

ولا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا .

الخطبة الانكليزية

وهذا نصها نقلاً عن جريدة المقطم مع تغيير قليل في بعض المواضع

حضرات اصحاب السعادة والسادة الكرام — (الديباجة)

أرجو أن تقابلوا أقوالي بالحلم والاغضاء فان خطابي هذا يكلفني جهداً عظيماً جسديًّا وأدبيًّا . أما جسديًّا فلأنه يلزمني أن أجمع قوتي كلها لأخطب فيكم ، وأما أدبيًّا فلأن اللطف الذي غمرني به الناس على اختلاف طبقاتهم في الأسبوع الذي فات ، قد غلبني وحملني جميلاً كثيراً ، ولأني أشعر بألم الحزن الشديد في نفسي على فراق هذه البلاد التي لي فيها أصدقاء كثيرون وبها تقترن كل الحوادث التي حدثت لي في خدمتي العمومية وكذلك الأفراح والأتراح التي أصابتني في حياتي المنزلية ومعيشتي العائلية مدة جيل تقريباً .

إني لا أفارق هذا القطر أيها السادة لأسباب سياسية وإنما أفارقه لأن يد الدهر ابتدأت تثقل عليَّ ولأني بعد ما قضيت في الخدمة العمومية نحو نصف قرن كنت في أكثره أكد كدًّا وأعدو عدواً يحق لي الآن ان أنال نصيبي من الراحة ، ولأني أشعر ايضاً ان المهام والمصالح العظيمة التي يطلب من وكيل الدولة البريطانية السهر عليها في هذا القطر يكون السهر عليها الآن أوفى وأتم اذا عين لها من هو أصغر سنًّا وفي ابان قوته ونشاطه عقلاً وجسداً

أرى قبل التكلم في أمور أخرى أن أقول كلاماً قليلاً عن الاشارات اللطيفة والعبارات الرقيقة التي فاه بها جناب الكونت دو سرزن وعطوفة رئيس النظار عن السيدة التي هي معينتي في حياتي . فقد وقعت أقوالها وقعاً شديداً في نفسي ولا شك انها وقعت كذلك في نفسها أيضاً . وهذا موضوع لو أطلقت لنفسي العنان فيه لعدوت في ميدان الفصاحة شوطاً بعيداً ، ولكني أملك عواطفي لأسباب ظاهرة وأكتفي بقولي إني لما كنت أصغي الى الخطبتين اللتين سمعناهما كنت أتمنى أن أكون مكان الخطيبين الكريمين ، وأطري اللادي كرومر عوضاً عن ان أرد على الثناء والاطراء ، وربما جاز لي في هذا المقام أن أقول انه كان من أقرب الأمور الى قلب اللادي الاشتراك مع غيرها من السيدات المحسنات في تقليل

الوفيات من الأطفال وتخفيف فتك الآفات بهم فتكاً ذريعاً، فعسى أن هذا العمل الذي ابتدأ ابتداء حسناً لا يهمل في المستقبل

ولست أطيل الشرح أيها السادة في تاريخ ما مضى ولا استطيع أن أشير الى جميع الذين أسعدني حظي بأن أكون شريكاً لهم في انشاء مصر الجديدة ، وانما أقول أني كنت دائماً أنال أكثر من نصيبي من مديح الناس على كل أمر حسن تمّ في هذه البلاد حديثاً ، والحال اني لولا مؤازرة غيري من المصريين والأوربيين أبناء أمتي وأبناء الأمم الأخرى لما استطعت أن أعمل شيئاً مما عملناه . وأقول أنه لم يعمل أحد منهم عملا أنفع مما عمله المستر فندلي الذي كان ينوب عني في ظروف وأحوال لا تخلو من صعوبة خصوصية مدة غيابي في السنوات الأخيرة .

لا ريب عندي أن في الأربع والعشرين سنة التي قضيتها في وظيفتي هنا ارتكبت خطأ كثيراً، ويحتمل أن يكون قد عاداني أناس أيضاً. ولكني أؤمل أن يكون وجودكم هنا اليوم دليلاً على أني ربيت لي أصدقاء كثيرين أيضاً . وقد أثر فيَّ حضور كثيرين من رصفائي الأجانب الذين كانت العلاقات الشخصية بيني وبينهم على غاية الوداد كما كانت بيني وبين الذين سبقوهم أيضاً .

قلت أني لا أستطيع أن أتكلم عن جميع الذين كانوا شركائي في العمل لكن ذكر واحد أو اثنين من أكابرهم يخطر الآن في بالي وتتردّد صورتهما بجلاء وقوة أمام ذهني حتى لا يسعني إلاّ أن أذكر اسميهما في هذا المقام . فأقول كلمة أو كلمتين عن شخص أرى أن الناس لم يعطوه حقه ولا أنصفوه . وأريد به المغفور له سموّ الخديوي توفيق باشا، على أني لا أقصد أن أسرد ألفاظ المدح الفارغ ، أو أورد الأقوال والعبارات المصطلح عليها بلا نظر الى صحة معانيها ، بل اني أعني ما أقول ، فتوفيق باشا كان يعرف بلاده ويعرف أهل بلاده أيضاً حق المعرفة وكان شبه حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصري يلطف من شدة غيرة الأولين أحياناً ويبذل نفوذه مع الآخرين لنفي خوفهم من الاصلاح الذي كان حينئذٍ يفوق خوف المحافظين المتطرفين . فالتاريخ يكون ظالماً لا عادلاً إن لم يجعل لتوفيق باشا مقاماً ذا شأن بين الغابرين من الملوك والأمراء الشرقيين، وهو لم يكن يشترك بنفسه كثيراً في اصلاح مصر وتجديدها ، ولكنه كان لحكمة وحسن فطنة ينشط ويؤيد الساعين في تجديدها واصلاحها . وهناك شخص آخر من عظماء الأمس الماضي يخطر الآن على بالي وتتردّد صورته في هذا المقام أمام ذهني، فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضي في مصر والذين قرأوا تقريري السنوي الحديث يعلمون أن ما اقترحته لتعديل نظام الامتيازات الأجنبية إنما هو بمثابة

تتمة للعمل العظيم الذي يحكي أعمال أرباب السياسة والذي خط المرحوم نوبار باشا خطته الأصلية. واذكر أيضاً اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا. ألا انه صديقي القديم المؤتمن دولة رياض باشا (تصفيق شديد طويل وهنا أحنى دولة رياض باشا رأسه علامة الامتنان).

إننا أيها السادة في زمان لا يحتاج فيه الشاب المصري الذي يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر . ولكن ما هو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان ، بل كان لاسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة في معاملة الذين لا يطأطئون الرءوس أمامه ولا يعنون لهيبته (ضحك) . ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جراءة على سوء الادارة وأقام الحجة على فساد الأحكام الذي كان متغلباً على مصر في تلك الأيام ، وعلّق الجرس بعنق الهرّ ، فأعجبت بشجاعته هذه حينئذٍ . وكثيراً ما وقع بيني وبين صديقي ورصيفي القديم خلاف بعد ذلك ولكني لم أكف قط عن النظر اليه بعين الاعتبار ، بل بعين المحبة التي تستحقها صفاته العبقرية .

وماذا أقول عن صديقي العزيز عليّ السامي المقام في عيني عطوفة مصطفى باشا فهمي (تصفيق حاد وطويل جدًّا) ، فقد قضينا السنين الطوال ونحن كأنا على أعظم صداقة شخصية ، فأولاً أقول انه من أعظم الذين التقيت بهم في حياتي لطفاً ، وأكرمهم أخلاقاً ، وأحسنهم مناقب (هتاف شديد وتصفيق حاد) امتاز بتمام الاخلاص والاستقامة والحرية والصدق في كل عمل من أعمال حياته . وثانياً أقول انه خدم أهل بلاده أجل الخدم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه ، وأنا أعلم أن هذه الأقوال القليلة لا توفي صفاته الجليلة بعض حقها ولكنه لا يزال لديّ قول كثير والوقت يقضي عليّ أن أختصر في ما أقول .

ومما أوجب لي السرور العظيم أني عاشرت ناظر الخارجية المصرية سعادة بطرس باشا غالي معاشرة طويلة وكان يؤدي أعظم منفعة وأجل خدمة بما أوتي من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية في حل المشكلات التي تنجم عن حالة البلاد السياسية الخصوصية.

وأذكر أخيراً أيها السادة اسم رجل لم أشتغل معه إلا من عهد قريب لكن معاشرتي القصيرة له قد علمتني أن أحترمه احتراماً عظيماً ، وإن أصاب ظني أو لم يخطىء كثيراً فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للمنفعة العمومية (تصفيق حاد طويل) لأنه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو صادق مستقيم كفء مقتدر شجاع في ما هو مقتنع به . وقد احتمل الطعن واللوم من كثيرين دونه

فضلاً عراحل من أبناء وطنه . فهذه صفات سامية فالواجب أن صاحبها يتقدم كثيراً .

أما شركائي في العمل من الأوربيين فغاية ما أقول عنهم إني أشكرهم من صميم فؤادي على مساعدتهم التي لا تثمن على شدّهم أزري في أحوال محفوفة بمصاعب عظيمة . ولا يسع المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ، ولكن إن كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن يمجدوا اسمه خصوصاً فلعله السر منكريف ، والسر وليم جارستن وأعوانهما ، الذين أعطوا المصريين أعظم ما يحتاجون اليه وهو ماء الري ، وأضيف الى اسميهما اسم رجل فرنسوي شهير جليل وهو المسيو مسبرو الذي أكسبته أبحاثه العلمية في تاريخ مصر القديم ما هو حقيق به من الصيت الطائر في الآفاق .

* * *

أخيراً أيها السادة أقول انه لم يكن يهمني ويلذ لي من كل واجباتي أكثر من الواجبات المختصة بالسودان . وسأعد اشتراكي مع السر رجينلد ونجت وأعوانه الغيورين الأكفاء في الاصلاح العظيم الجاري في تلك البلاد منذ أعوام ، مصدراً استمد منه الفخر والسرور كل أيام حياتي .

فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين غيرهم أظن اننا عملنا عملاً غير رديء في ربع قرن من الزمن وان يكن فيه ما فيه من القصور والتقصير ، ولكن يقول لي قوم كثيرون أن المصريين بوجه الاجمال لا يعترفون كثيراً بالجميل وبالمنافع والفوائد التي لا شك في أنها منحت لهم ، فأجيب على ذلك إني لا أعرف ما يشعر به المصريون من هذا القبيل ، ولكن فيلسوفاً فرنسويًّا قال قولاً ، أورد معناه ولست أجزم باقتباس مبناه ، قال : اذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلاً ، لم يكد يبقى له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها .

* * *

ولا ريب أن أهل مصر قاسوا كثيراً في ماضي زمانهم ومهما كان شعور المصريين وكانت حماساتهم ومهما برهن لي المبرهنون وأقاموا عليَّ الحجة والدليل فلست بتاركهم يحجونني ليخرجوني من الوهم الشريف الذي أنا فيه إن صحَّ انه وهم لا حقيقة . وأعني بذلك انه لا يمكن أن أصدق أن المصريين — أو أحسنهم على كل حال — ينكرون أن يد التمدن الغربي التي كانت تستعملها انكلترا لعمل عملها في الخمس والعشرين سنة الماضية هي التي انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ما ألقاهم دهرهم فيها . وهب أني اقتنعت — وما أنا بمقتنع مطلقاً — أن أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة الجليلة فاني لا أزال أؤمل مع

ذلك أن نسلمهم يعترف بها إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين[1]

أيها السادة : لما أتيت هذه الديار لأتقلد وظيفتي الحالية فيها وضعت نصب عيني غرضين وجعلت أسعى اليهما دواماً مدة أعوام طويلة أحدهما سياسي والآخر اداري .

فالغرض السياسي الذي وضعته نصب عيني هو أن أكون من جملة المساعدين على اعادة ذلك الاتفاق الذي قضت الأحوال بمسه بين فرنسا وانكلترا ولم تقض بذلك مقاصد حكامها وأهاليهما ولا مطامعهم . قال السياسي الطائر الصيت المسيو غمبتا الذي كانت ارادته المتسلطة على العقول مدة منصبه تؤثر في سير تاريخ مصر تأثيراً دائماً يوصي أهل بلاده : اياكم وان تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية . ومذهبي في السياسة الدولية الذي يشاركني عدد عظيم من

---

(١) نعم سيعترفون بأنكم قتلتم حركتنا الوطنية سنة ١٨٨٢ واعتديتم على حريتنا وألغيتم دستورنا وأفسدتم التعليم وأذللتم الموظفين المصريين واتخذتم من النظار آلات صم بصلفكم واستبدادكم ، وأنميتم المصالح الاوربية وقتلتم المصالح المصرية ، وسستم البلاد سياسة صاحب الضيعة الجشع يمتص دم الفلاح ليظل خاضعاً مستكيناً .

نعم جاء الجيل المبصر من أبناء العميان . جاء الجيل الذي ينبش قبور ماضيكم ويحاسبكم على أنكم ورثة عصر المماليك ، ولكن بأوضاع أخرى .

كتب غلادستون الى مدام « أولغا نوفيكوف » كتاباً بعد أيام من موقعة التل الكبير قال فيه :

« نحن وكل المملكة في سرور وابتهاج ، وآمل أن يتقبل الله القادر على كل شيء ، شكراننا على ما حبانا به من نعمة وفضل فيما أحس ، بل واعترف أنه عمل متصف بالامانة . أما أن ينظر بعض الروسيين الى انجلترا في سنة ١٨٨٢ بعين الغيرة والحسد ، أو اننا من ناحيتنا انما نجاهد في سبيل العدل الاسمى والحضارة ، فالحكم فيه متروك الى قليل من الزمن . ومن حقنا أن نغتبط ونمضي معجبين بجيشنا وبحريتنا وأسلحتها وقوادنا ومنظماتنا . انه لم يمض سبع أسابيع منذ أن توجهنا الى ارسال ٣٥٫٠٠٠ رجل عبر مسافة لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل ، وكان من فضل الله علينا أن وافانا بنتائج سريعة » .

« هذا ، كما تذكرين ، بمناسبة مجازفة عسكرية عبأت لمصلحة بورصة المتود ، ومعركة ذبح فيها ٢٠٫٠٠٠ فلاح من فلاحي النيل نصف مسلحين » .

(انظر مذكرات الفرد إسكاون بلنت المجلد الثاني ص ٢٥٠ — ٢٥١) .

ويقول مستر بلنت أنه أسف كل الاسف لانه لم يطلع على كتاب غلادستون هذا حينما كان يؤلف كتابه « التاريخ السري لاحتلال مصر » ويعجب كيف ان رجلا اشتهر بالفضل مثل غلادستون قد ألقى بنفسه في غمرات هذه المذبحة وفي حرب هي من أشنع حروب الاعتداء .

ورحم الله مستر « بنيامين كد » الانجليزي ، وهو عالم لا سياسي ، اذ يقول في كتابه « علم القدرة » ص ١٢١ الفصل الخامس :

« ان حضارة الغرب تكاد لا تكون شيئاً أرفع من وحشية مفخمة » .

أهل بلادي فيه يمكن أن يعبر عنه بهذه العبارة : اياكم وان تقطعوا حبل الاتفاق الفرنسوي. فان هذا الاتفاق الذي أشار اليه الكونت دو سريون بعباراته اللطيفة مبني على اشتراك الفريقين في المصلحة ، وعلى قرب الجوار وتشابه النظامات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراماً ناتجاً عن تلاقيهما في ساحات الوغى كثيراً واقتتالهما فيها شديداً وعلى كون خصائص كل منهما وصفاته مكملة لخصائص الآخر وصفاته . وزد على ذلك كله انه ليس في هذا الاتفاق تهديد لأحد وانما هو صادر عن رغبة الفريقين في حفظ السلام في العالم . فان كان في العالم أمتان تقضي عليهما الأحوال والظروف بأن تتصادقا وتتحابا فانما هما أمتا فرنسا وانكلترا ، فلا يخفى على أقل مبتدىء في السياسة انه ما دامت هذه القرحة المصرية تنزّ فصداقة تينك الأمتين لا بد وان تمس . ولذلك لما أتيت مصر سنة ١٨٨٣ عقدت نيتي على أن أسعى في سد هذه الثغرة بقدر ما يمكنني في دائرة وظيفتي . وكان ذلك سعياً شاقّاً كسعي الطالع جبلاً حاملاً ثقلاً ، فان الأمتين قضتا الأعوام وكل منهما تنظر الى الأخرى شزراً وقد دارت بينهما المضاربة والملاكمة القاسية ، ولكنهما لم تتعد والحمد لله حد الكلام، ونلت أنا نصيبي منها فقد ظللت زماناً والجرائد الفرنسوية تذكر اسمي منعوتاً بنعوت الذم إلاّ نادراً . وأظن أن أكثرها كان يلقبني بكرومر الوحش . وقد شبهتني مرة على ما أتذكر بأعظم آلهة الوثنيين حبّاً لشرب الدماء حيث لقبتني بمولوك[1] ولكن مداعبات الجرائد هذه هي في المناقشات السياسية كالأفاويه والتوابل في الطعام فتكسبها حياة وتزيدها نكهة ورونقاً فلا يحسن بالانسان أن يحفل بها كثيراً ، لاسيما وان زمانها قد مضى لحسن الحظ وانقضى وتغيرت لهجة الجرائد الفرنسوية حتى لقبتني مرة في هذه الأيام بهذا الشيخ الجليل . على أني أفرغت الجهد مدة أعوام كثيرة في المساعدة على عقد اتفاق بين الأمتين . وأقول الآن إن أسعد يوم من أيام خدمتي في مصر كان يوم ٦ ابريل سنة ١٩٠٤ الذي وقع فيه الاتفاق الفرنسوي ، ولست أدعي أني كنت من أشهر واضعي هذا الاتفاق، بل أعترف أن الفضل في عقده كان لأرباب السياسة المتولين زمام الأمور الخارجية يومئذٍ في باريس ولندن . وربما جاز لي من غير أن أمسّ واجب الإكرام والإحترام، أن أضيف اليهم مليكنا السامي النهي العظيم المواهب العقلية الذي نلت الفخر والامتياز بخدمته السنية[2] . ولكن يسوغ لي أن أقول إن الجهد

---

(١) "Moloch or Molech" : ذكر في التوراة : الملوك الاول إص ١١ آية ٧ : حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم . ولمولك رجس بني عمونة اه . وانتشرت عبادته بين القبائل الكنعانية والسامية . وهو صورة من بعل "Baal" أو هو تشخيص أو تجسيم لمبدإ الذكورة في الطبيعة . وكانت عبادته تتم بتقديم ضحايا بشرية . See :Century Encyclopeadia of Names

(٢) الملك ادوارد السابع

المتواصل الذي بذله أولو الشأن في مصر مدة أعوام طويلة لاجتناب كل ما يمكن اجتنابه من المنازعات ، ولفض كل الدعاوى والشكاوى الصغيرة التي نتجت من احتلال بريطانيا العظمى لمصر — هذا كله مهد طريق الاتفاق ، وسهل الأمر على المتفاوضين فيه .

وأتكلم الآن عن الغرض الاداري الذي وضعته نصب عيني فأقول : اني سمعت في هذه الأيام لفظاً واحداً كثيراً عن أن حكومة مصر ، حكومة مستبدة ظالمة ، فلا يهمني أن أطيل في الرد على مثل هذا الكلام بالتطويل ، بل أقول اني أفرغت جهدي مدة خدمتي كلها بمصر في بث روح الحرية في نظام حكومة « بيروقراطية » ولكني لم أدخر وسعاً في الاطلاع على حقيقة الرأي العام سواء كان أوربيًّا أو محليًّا ، وإعطائه حقه من الاعتبار والاهتمام ، وحسن أن أترك لغيري الحكم في مقدار نجاحي من هذا القبيل .

ثم التفت الى أمر آخر وهو اني أسمع قوماً يقولون ان مصر ارتقت ارتقاءً ماديًّا عجيباً في الأعوام الأخيرة ولكن لم يعمل فيها شيء لترقية أهلها أدبيًّا وعقليًّا . عجباً أيها السادة كيف يقال ان مصر لم ترتق أدبيًّا ؟ هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده كما كان في الأيام الغابرة ؟ . هل السخرة (العونة) باقية فيها ولم تطو الأيام عليها ؟ . هل لعنة الرق لا تزال حالة عليها ولم تزل منها ؟ . أليس كل شخص فيها من الأمير الى العملوك الحقير سواء أمام القانون ؟ . ألم ينشط الناس فيها الى السعي والكسب ؟ . أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم ويتمتعون بما يحصلونه بعرق جبينهم . أليس من الحقائق المقررة ان العدالة لا تشترى وتباع اليوم وان كل انسان حر — بل ربما ظنَّ قوم انه حر أكثر مما يجب أن يكون — في المجاهرة بآرائه والتعبير عما في ضميره وان سلطان « البخشيش » قد ثلَّ عرشه وعزل عن مقاماته العليا في الحكومة ولم يبق له أثر إلاَّ في أخرياتها وضواحيها . وان ماء النيل الذي يحيي الأراضي ويأتيها بالخصب يوزَّع على الأمير الخطير ، والفلاح الفقير ، بالقسط والعدل . وان المرضى يمرضون ويعالجون الآن في مستشفيات مستكملة العدد ووسائط الراحة . وان المجرمين والمجانين لا يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية ، حتى الحيوان الأعجم لم يفت الرفق به عناية المصلحين . وان اشتراك الحكام والمحكومين في المصالح أصبح أمراً مقرراً عند الفريقين قولاً وفعلاً . وان كل عمل تعمله الادارة وان كان خطأً — اذ العصمة لا تكون إلاَّ لله وحده — تكون آثار حسن القصد بادية عليه ، ورغبة الحكومة في خير الأهالي ظاهرة فيه ، وان الأموال التي تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب والتي قلت كثيراً عما كانت عليه تصرف الآن في الوجوه النافعة للبلاد بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ونحو ذلك من الأمور التي لم تكن لتهم السكان بوجه من الوجوه ، فإن كانت هذه الأمور

كلها وكان غيرها مما يمكنني أن أذكر منه كثيراً لا تعد ترقية أدبية ، فالحق يقال اني لا أعلم بعد ذلك ما المراد من قولهم آداب وأدبيات[١] .

ولكن يقول قوم ان عقول المصريين وآدابهم لم ترتق ، فأنكر هذا القول أيضاً انكاراً باتاً . انظروا إلى تعليم البنات فهل يظن عاقل انه يمكن لهذه البلاد أن تتشرَّب روح التمدن الحقيقي ما دام مقام المرأة غير متغير فيها ؟ إن كان أحد يظن ذلك فإني أخالفه في ظنه كل المخالفة ، ومع ذلك فإنه منذ بضع سنين — والعهد غير بعيد — لم يكن أحد يهتم بهذه المسألة غير صديقي سعادة يعقوب باشا أرتين ، وعزتلو قاسم بك أمين وآخرين قليلين . وأما بقية الأهالي فلم يكونوا يبالون بذلك بل انهم كانوا ضده ، فانظروا التغير الذي حصل الآن. لم يبق عند الحكومة المصرية مدارس تسع كل البنات اللواتي يروم والدوهنَّ تعليمهنَّ .

وانظروا أيضاً الى التعليم الابتدائي فان النظام الذي كان متبعاً قبل الاحتلال البريطاني لم يكن يصلح لشيء ثم تغير ذلك أيضاً تغيراً عظيماً لأن الكتاتيب تنشأ في جهة من جهات القطر بعناية كثيرين من أعيان البلاد المستنيرين . وقد ابتدأت حركة أخرى تستحق الذكر لتعليم الصنائع للاهلين . أما تعليم العلوم العالية وأعني به الحقوق والطب والهندسة وما شاكل فالتقدم فيها مستمر مطرد منذ أعوام .

نعم انه لو تيسر للحكومة المال الوافر منذ عشرين سنة . لكان قد تمَّ أكثر مما قد تمَّ الآن كثيراً ، ولكن عقدة القضية المصرية ان المال الذي كان للحكومة سبيل اليه لم يكن وافراً ، بل لم يكد يكون كافياً مدة أعوام كثيرة لسد حاجاتها الضرورية .

على أني لا أنكر ان البلاد لا تزال مفتقرة إلى تقدم كثير أدبيًّا وعقليًّا وأنا واثق ان المعارف ستتقدم وترتقي سريعاً على يد ناظر المعارف الحالي وجناب المستر دنلوب مستشاره لاسيما وأنه قد نزل بالأمس الى الميدان حليف كفء عالي الشأن . فاني قرأت منذ برهة يسيرة حديثاً جرى لسموّ الخديوي مع مكاتب إحدى الجرائد الفرنسوية[٢] . وقد قال سموه فيه « إن الهمّ الدولي بأمر الدين المصري قد مضى وانتهى »

وأقول في سياق الكلام إن هذا القول مطابق للواقع الآن ، ولكني واثق انه لو كانت الحكومة تنفذ كل مشروع من مشروعات الاصلاح الغربية التي تكاثر مسمعنا لها في هذه

(١) نسي كرومر هنا دنلوب وفساد التعليم وضياع كرامة الموظف المصري وفقدان الحرية والكبرياء والانصاف ومقاومة مشروع الجامعة بمشروع الكتاتيب ومساعدة الاجنبي على المصري ، ورعاية الاجانب ونبذ المصريين ، ونسي بوغوص نوبار ويعقوب ارتين والمستشارين الانجليز الذين كانوا ملوكاً غير متوجين . نسي كل هذا ونسي معه ان ما ذكر كانت فائدته الكبرى للاجانب .

(٢) حديث الخديو عباس الثاني مع مكاتب الطان ، وقد نشرناه في الباب الذي عنوانه « الخديو » .

الأيام لكان الهمّ الدولي عاليـة مصر لا يلبث أن يعود ويحيا في الحال ، ولكني لا أطيل الكلام في هذا القبيل .

ثم قال سموه «وقد حان لنا أن نبذل جهدنا وليس في خير الأهالي المادي فقط، بل في سد حاجاتهم العقلية والأدبية أيضاً . وأنا لا يهمني أمر أكثر مما يهمني هذا الأمر» فأرحب بأقوال سموه هذه من صميم فؤادي وأقول أن سموه خصوصاً يقدر أن يرقي شعبه كثيراً من الجهة الأدبية فهو يستطيع أن يبطل فضائح ديوان الأوقاف المفسدة لهذه البلاد أي افساد، ويستطيع أن يظهر لأهل دينه أنه يمكن اصلاح المحاكم الشرعية من غير أن تمسّ أركان الاسلام . ويستطيع أن يحبط أعمال المشيرين ذوي الأغراض الخصوصية وغير المسئولين الذين يتجمعون حول كل معية شرقية ويكون نفوذهم مضرّاً بالآداب العمومية. ويستطيع استخدام نفوذه العظيم لتشجيع المصلحين الحقيقيين الذين يريدون الخير لبلادهم من صميم أفئدتهم ، فاذا فعل سموه هذه الأمور كما أؤمل ، كسب الشكر والاحترام من كل طبقة من طبقات الأمة

أخاف أن أكون قد أتعبتكم أيها السادة بطول الكلام ولكن كل ما قلته كان عن الماضي فاذا تكرمتم عليّ بالاصغاء فاني أقول شيئاً عن المستقبل .

ماهي حقائق الحالة المصرية الآن . أولاها هي : أن الاحتلال البريطاني يدوم الى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسميًا . وثانيتها: هي أنه ما دام الاحتلال باقياً فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التي تجري عليها الادارة المصرية لا تفصيلاً بل اجمالاً . ولا يكن عند أحد أقل ريب في هذه الحقيقة الثانية[1]. والنتيجة التي استنتجها من هاتين المقدمتين هي أن نظام الحكومة الحالي دائم رغماً عما يعتريه من العيوب والشواذ الكثيرة التي لا يعترف بها أحد أكثر مني، وأظن أنه ليس في الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السر إلدن غورست خلفي المقتدر البارع (تصفيق حاد)

كلكم تعرفون مقدرة السر إلدن غورست ومزاياه فلا حاجة بي الى اطالة الكلام في شرح أوصافه الجليلة، وإنما أقول اني سررت أعظم سرور بتعيينه في مكاني لأن الصداقة بيني وبينه عظيمة ، ولأن ثقتي به تامة ، ثم اني أرى من أقوال الجرائد الأوربية والمحلية انها تشير على السر إلدن غورست باتباع ما تسميه « سياستي » .

فرأيت أن أوضح ماذا كانت « سياستي » هذه ، ويكفي لايضاحها كلمات قليلة وهي ان سياستي كانت قول الحق، وأنا عالم أن السر إلدن غورست يجري على هذه السياسة، ولا ريب عندي أنه يجد في القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص الفعال

(١) هذا منتهى ما سمعنا في السياسة العالمية من الصلف والكبرياء والعمى النفسي وفقدان البصيرة ،
يقفون والفلك المحرك دائر ويقدرون تضحك الاقدار

ما كنت أنا أجده منهم دائماً ولا تنسوا أيها السادة أن مبدأ « الاتحاد قوة » يجب أن يتبع أتم اتباع في هذا القطر اذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه[١] .

ليس من المحتمل أيها السادة انه يكون لي دخل عظيم في السياسة في المستقبل ، ولكني لا أكف عن الاهتمام بأمور مصر على قدر ما تسمح به قوتي وعافيتي ، وأبذل كل ما يمكنني بذله من نفوذي في ترقية هذه البلاد على الخطة الموضوعة الآن لترقيتها ، ولا أمدح تغييراً فجائيًّا فيها ، ولا أشير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية الى منهاج جديد. واذا اقتضى الأمر فاني سأطلب وألح خصوصاً بأن هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعاً لا تعامل إلاّ بقدر ما تستحق ، وان سألتموني أيها السادة عما تستحق قلت لكم انها لا تستحق شيئاً لأنها لا تعبر في الحقيقة عن رأي المتنورين من سكان القطر المصري أوربيين كانوا أو مصريين بل انه متى زال كل ما يقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف في الرأي بيني وبين خصومي وخصوصاً الذين في بلاد الانكليز منهم اختلافاً في الدرجة لا في المبدإ ، فهم يريدون أن يعدوا عدواً سريعاً جدًّا ، وأنا أرى أن الخبب أحسن سير يوافق مصلحة البلاد . فان هذا السير هو الذي نفع معنا في الماضي ، وهو الذي أشير بدوامه ، فلا يبطئ حتى يصير مشياً ثقيلاً ، ولا يسرع حتى يصير عدواً زميلاً ، لاقتناعي انه اذا أسرع كثيراً خيف ان جواد مصر يكبو فيقع ويكسر ركبتيه[٢] .

وأخبركم الآن أيها السادة لماذا أرى هذه الآراء وأذكرها الآن . لا أراها لأن من ورائها مرايا سياسية لوطني ولا لأني أعتقد أن جميع الأذكياء من الأوربيين والمصريين في هذه البلاد يشاركونني فيها . كلاّ ، بل لأني أؤمل ان ما أقوله لحضراتكم الآن يترجم الى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لا يسمع لهم صوت . أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تعبهم . فأنا — الذي يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقي — أحذرهم من أن يغترُّوا ويضلوا بأقوال الذين يدَّعون كذباً بأنهم ينوبون عنهم ، وينطقون بلسانهم ، وينقلون عنهم بلا إذن ولا توكيل منهم آراء لا يرونها ، بل لا يفهمونها ولا يدركونها ، ويطلبون أموراً سياسية لو أجيبوا اليها حالاً لعادت بالضرر على مصالح الناس عموماً ، وعلى مصالح أفقر أهالي القطر خصوصاً[٣] (اسمعوا اسمعوا) .

---

(١) يقصد بذلك اتحاد الانجليز والاجانب على شتى أهل دنشواي وحلهم أمام أهلهم وفي قريتهم .

(٢) الانجليز هم الذين كسروا ركبتيه لكي لا يفلت من يدهم . وسبحان القوة ما أعظمها وما أكذبها وما أسفلها .

(٣) أصحاب الجلاليب الزرق الذين شنقهم لورد كرومر في دنشواي . ان المصريين لن ينسوا على القرون تأر دنشواي

ولو كنت أتحوّل عن الدفاع عن هذا النظام الذي دام نحو ربع قرن الآن الى انتقاده لكان أول ما انتقده فيه أن التقدم كان سريعاً جداً فيه عوضاً عن أن يقال انه كان بطيئاً جداً وانه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصلاحات التي تمت فيه[1].

بقي لي نصيحة أخرى أحب أن أقولها قبل أن أجلس في مكاني وهي أن قولهم « الاتحاد قوة » لا يصدق على الذين هم في خدمة الحكومة فقط ، بل على جميع الذين يهمهم التمدن الحقيقي إلى هذه البلاد . فالواجب عليهم أن يتحدوا معاً ، ولا أعني بذلك أن الانكليز والفرنسويين والألمان وسائر الأوربيين فقط يطرحون عنهم ما بينهم من المناظرة والمنافسة ويتحدون معاً في مصلحة واحدة ، بل أن جميع الذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقل ، وأن يكون تقدم البلاد مستمراً دائماً يتحدون جميعهم معاً سواء كانوا مسلمين أو أوربيين أو أفريقيين أو أميركيين ويقاومون القوات المجاهدة في سبيل التأخر والتقهقر حقيقة سواء كان جهادها من جهل أو من عمد وقصد[2].

وأشكركم أيها السادة في الختام على إصغائكم إليّ بالصبر وطول الأناة هذه المدة التي قلت فيها كل ما أردت قوله .

ولا شك عندي أن الصعوبات لا تزال كثيرة في سبيل المصلح المصري وخصوصاً السر إلدن غورست ، ولكن آخر كلمة أقولها له ولكم كلكم هي كلمة كان عبّاد الإلهة ايزيس في هذه البلاد كثيراً ما ينقشونها على قبورهم بلغة القوم الذين هم أصل التمدن الأوربي والذين استوطن أناس كثيرون من ذريتهم هذه البلاد غيرها والذين أعد منهم أصدقاء كثيرين لي — وأعني بها لغة اليونان . ومعنى تلك اللفظة اليونانية « تشجعوا » .

فأودّعكم أيها السادة وأنا واثق ثقة تامة بمستقبل هذه البلاد التي كانت موطناً لي سنين هذا عددها ، والتي تأصلت جراثيم التمدن الحقيقي فيها على ما أرجو حتى صار يعسر استئصالها. أودّعكم على الكره مني واستودعكم الله .

* * *

ثم صدحت الموسيقى بالسلام الخديوي وكانت الساعة ٧ والدقيقة ١٠ مساء .

---

(١) سبحان القوة ما أسمجها وما أغشمها .

(٢) معنى هذا الكلام في لغة كرومر : اتحدوا ايها الانكليز والفرنسيون والالمان وسائر الاوربيين واستكينوا ايها المسلمين والافريقيين والاميركيين ، اتؤكلوا وتموتوا تحت أقدام سادتكم . اذ كيف يتحد مأكول وآكل ، وعبد وسالب حرية ، وغاصب ومغصوب ، وحاكم مستبد ومحكوم ؟

— ٥ —

كان من الطبيعي أن لا يتسع قصر الدبارة في الأسبوعين الماضيين لغير توديع المعتمد القديم ، واستقبال المعتمد الجديد، فلذا كان من حسن الذوق والحكمة أن لا نرسل بملاحظاتنا على تقرير اللورد كرومر عبثاً[1] لأننا لا نريد بهذه الملاحظات التشهير وانما نريد أن يعلم معتمد الدولة رأي الناس في هذا التقرير الذي اعتبر كأنه برنامج السياسة الانكليزية، فاليوم وقد استقلّ جناب السير غورست في هذا القصر نقدّم هذه الملاحظات آملين ان تحل في نظره محل الاعتبار .

الجامعة الاسلامية

ليس من موضوعنا أن نبحث عن قيمة الشرقي على العموم من جهة الأخلاق الثابتة وآثار التطور المدني في تلك الأخلاق ولا من جهة كفاءته السياسية لتدبير شؤونه وحكم نفسه بنفسه ولا من جهة تاريخ الشرق في التمدن ولا من جهة أن اليابان من بلاد الشرق كما استثناها اللورد كرومر في تقريره معتذراً بعدم معرفتها . ولكنا نتعرض الى تفسير تلك الجملة المبهمة الكثيرة المعاني القليلة الألفاظ التي صدّر بها هذا الموضوع في تقرير اللورد .

قال الأستاذ سايس : « ان الذين أقاموا في الشرق وحاولوا الاختلاط بأهله يعلمون حق العلم انه يستحيل مطلقاً على الأوربي أن يتحد في النظر مع الشرقي . ومن المحقق أن الأوربي بادىء الأمر يظن أنه هو والشرقي يتفاهمان ولكنه يأتي وقت عاجلاً أو آجلاً يرى الأوربي نفسه يحس فجأة أن ذلك كان حلم نائم ويجده أمام انسان ذي ملكات عقلية غريبة عنه بالمرة حتى ليظنه من سكان زحل» . وبهذا الرأي يدين جناب اللورد كرومر ويحكم به على الشرقيين الذين يعرفهم لا على اليابانيين والصينيين .

صدق الأستاذ سايس اذا كان قوله منصرفاً الى أن الأخوين الشرقي والغربي مختلفان في النظر جدّاً فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الأدبية . أو بعبارة أخرى ان الشرقي بذكائه ، وأطوار تمدنه ، ولغاته المملوءة بضروب المجازات ، وجوّه القليل الاضطرابات، وطبيعة أوطانه، وما ألفه من التقاليد الدينية العريقة في نفسه، ومواعظ أسلافه الغالب فيها

(١) نشر بالعدد ٤٩ من الجريدة في ٧ من مايو سنة ١٩٠٧ بعنوان « تقرير اللورد كرومر »

تفضيل الزهادة . كل ذلك يجعله يميل بطبعه الى أن يجعل للفضائل الأدبية كالاحسان والكرم والوفاء والاخلاص الديني المقام الأول في حياته الدنيا ويفضلها على المنافع المادية . فعيب الشرقي قد يكون في سهولة أخلاقه وسلاسة انقياده كما وصف به أرسطو سكان آسيا الذين يشهد لهم بالذكاء المقتضي صحة الانتاج ، ولكنه عاب عليهم ما ينتجه تأصل طبائع الاستبداد في حكوماتهم . ولا يظن المطلع على تقرير اللورد انه أراد بقوله الاشارة الى تلك الفضائل . خصوصاً انه ليس في مقام مدح الشرقي ولكن الذي يطلع على هذا الموضوع من التقرير يرى انه يريد بيان سلسلتين من الأفكار .

أولاها — إن أفكار المصريين عقيمة غير منتجة الى حد انه يصعب معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية وأقام على ذلك دليلاً هو ان أفكارهم بعيدة عن تطبيق القاعدة ! « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » . لأن بعضهم يظهر لجنابه الرغبة المشكلة في الرضى عن نتائج الاحتلال دون الرضى عن الاحتلال . وان أحدهم طلب اليه تعيين مهندس انكليزي لتقسيم الماء . وبعضهم طلب قاضياً انكليزياً للفصل في قضية . . . . . ولا نتعرض هنا لذكر الأشياء التي حملت هؤلاء الأشخاص على مثل هذه الطلبات على فرض أن طلباتهم تؤخذ على شعور المصريين جميعاً . بل نرجىء هذا البحث الى الفصل الخاص بالموظفين وغاية ما نورده هنا هو مناقشة القاعدة « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » .

وجد الاحتلال الانكليزي في مصر بعلة اطفاء الثورة وتأييد سلطة الخديوية المصرية والمحافظة على المصالح الأوربية ثم تدرجت العلة الى اصلاح شؤون الأمة المصرية واعدادها لتحكم نفسها بنفسها وليأمن الانكليز على حقوقهم التي كسبوها في مصر . ثم ينصرف عنها الاحتلال — متى كان هذا هو غرض الاحتلال وكانت أعمال الاحتلال الظاهرة الحسية تؤيد هذا الغرض ، فيكون المصري الذي يرضى بالنتائج (أي بالاصلاح الذي لاجله جاء الاحتلال) ولا يرضى بالاحتلال هو انسان عقيم النظر حقيقة .

أما وقد رأى المصري رأي العين ان الاحتلال لم يثبت له بالحس ان علة وجوده في مصر هي تأهيل مصر لأن تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الاحتلال وبين كثير من أعمال الاحتلال في مصر بوناً بعيداً فأشكل عليه الأمر الى حدّ ان المصري المنصف الكثير التدبر والتروي الذي لا يشوب حكمه على الأمور في مصر غرض من الاهواء يكاد كلما طابق بين علة الاحتلال وبين عمله يقع في روعه أن للاحتلال مقصداً خفيّاً غير ما يقول الساسة الانكليز . ولا شك في أن مثل هذا معذور اذا رضي بنتائج الاحتلال دون الاحتلال الذي أشكل المقصود منه على العقول .

بشر المصري آماله حين رأى احترام الحكومة للحرية الشخصية التي نشرها الاحتلال والغاء السخرة وغيرها والقيام بالأعمال النافعة ولكنه لم يلبث أن رأى الاحتلال بعد ذلك بقليل قد ظهر في كثير من المواطن بمظهر المعاند فأخذ أولاً يقتسم هو والخديوية المصرية آراء الناس وأميالهم فأخذ الناس بمقتضى هذه المعاندة بين السلطتين ان يلتجىء كل الى ما يرى في الالتجاء اليه مصلحته الذاتية لأن المصلحة العامة هي في أن لا يلتجىء الناس إلى أحد الطرفين دون الآخر ، لأن فشو ذلك يضيع شخصية الأمة ويجعلها كما كانت لا حقّ لها إلاّ الطاعة للامير (إن سميت الطاعة حقًّا) — ولا ينكر أحد أن تنازع السلطتين من طبعه أن يجعل العناد يتخلل كثيراً من أعمال كلتيهما — فلما ظفر الاحتلال بالسلطة قرّب كثيراً من الذين لا يهمهم الاّ مصالحهم أو رواتبهم ، ثم التفت إلى التعليم العام في المدارس الأميرية فوصل به الى هذا الحد الذي نراه اليوم والذي جعل الحكومة نفسها تشكو قلة الاكفاء بل ندرتهم . ثم مال إلى النفوذ الشخصي للحكام الوطنيين فجرّدهم منه وانحصر عملهم في الطاعة لغيرهم من الانكليز سواء كانوا رؤساء أو مرءوسين . ثم لم يستبدله بمشاركة الأمة له في الحكم — فاعتقد المصريون أو أغلبهم أن الاحتلال هو لمصلحة انكلترا وأوربا بالذات حتى لقد غلا بعضهم في تقدير فهمه العدل الذي جرى على يد الاحتلال فقال از انكلترا مهما كانت نياتها بمصر لا يمكنها الاّ أن تعدل ما دام أنه لا مصلحة لها في الظلم .

فهل يكون المصري غير منتج إذا بنى فكره على الأعمال المشاهدة من خير وشرّ واستنتج من هذه الأعمال نتيجتها اللازمة وهي أن الاحتلال قد جاء بفوائد يجب الرضى عنها ولكن تمشيه على طريقة حرمان الأمة من الحياة السياسية خطر على الأمة يوجب الضجر والقلق وسوء الظن بالاحتلال كما قدمنا . فتكون النتيجة أن تطبيق القاعدة المذكورة على وجود الاحتلال (وهو الوسيلة) وعلى فوائده (وهي المطلب) من الصعوبة بحيث لا يمكن تطبيقها من غير تعسف إلاّ إذا أبان الاحتلال لمصر أنه يسعى أيضاً في منح مصر حياة سياسية بالتدريج . والمؤمل أنه يعمل على ذلك . ولا ينكر منصف أن الحكومة اهتمت في هذه السنين الأخيرة بأمر نشر التعليم بين طبقات الفلاحين ونجحت في تذليل كثير من الصعوبات التي كانت تقف في طريق تعليم البنات كما سيذكر في فصل التعليم . ولو أضافت الى ذلك منح الأمة شيئاً من الاشتراك معها في العمل لاقتنع الناس بأن الاحتلال مؤقت وانه لا يقيم الاّ ريثما تصلح مصر لحكم نفسها بنفسها . ولأمكن بعد ذلك القول بحق أن من « بيع المطلب بيع الوسيلة » .

ولكن هناك أمراً آخر لا يصح اغفاله لأنه قد زاد أمر الاحتلال إبهاماً على إبهام وهو

ما ذكره اللورد كرومر في خطبته الأخيرة في حفلة الوداع . تلك الخطبة التي هي منصبة في أغلب معانيها على الغرض السياسي الخطر الذي يحاول اقناع العالم به من حولين وهو جعل مصر مستعمرة أوربية مختلطة يكون للأوربيين فيها الغنم وعلى المصريين منها الغرم فكان مهر قبول هذه الفكرة لدى الأوربيين أن صرّح في خطابه بأن الاحتلال باق في مصر إلى ما شاء الله، فكان في هذا التصريح إلتباس جديد على الناس . ولكننا مع ذلك نرى أن هذا التصريح ليس من شأنه أن يؤثر تأثيراً جوهريًّا في السياسة المصرية لأن وقت الفكرة فيه لم يحن بعد ما دام الانكليز لا يزالون يعدون بأنهم يساعدون على ترقية مصر رقيًّا سياسيًّا

ومن هذا يرى القارىء أن عدم صحة الفكر المصري في الانتاج لم تأت من طبيعة ولا من عرض ملازم له ، بل أتت من عدم امكان الحكم على مقاصد انكلترا من الاحتلال .

الثانية — هي الجامعة الاسلامية — إن فكرة الوحدة الاسلامية قد تجول أحياناً بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق. ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر، تظهر وتخفى تبعاً للحوادث. فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوربية على شيء يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التي استقلت واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر انها أمة اسلامية وان أوربا لا تساعد في الشرق الاّ الأمم المسيحية فتمنى بعضهم أن لو كان المسلمين وحدة كما للمسيحيين في أوربا هذه الوحدة التي يتخيلون وجودها وانها كانت الحامل لأوربا على التداخل في أمر ولايات البلقان وارمينية . نقول ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية (بانيكريستيانسم) كما خلقت كلمة جامعة اسلامية (بانيسلامسم) على أن عقلاء المصريين لا يرون لكلمتيهما وجوداً في العالم، ولكن السياسة تخلق ما تشاء فليس لأوربا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه بعيدة عن أن تؤدي الى اعتداء من جهة المصريين ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوربيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذي خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوربية في الشرق .

أما كون الجامعة الاسلامية موجودة وجوداً حقيقيًّا أو انها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لادليل عليه مطلقاً ، كما انه لو حصول ايجادها لاستحال ذلك بالمرّة على طلابه . علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس الاّ المنافع فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين . وإن أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم في خلافة أمير المؤمنين

علي بن ابي طالب مما هو مشهور ومأثور . إن أحسن ما قرأنا في أمر الجامعة الاسلامية هو ما ذكره الأستاذ براون في خطابته التي ألقاها في كلية كمبردج سنة ١٩٠٣ وأبان فيها أن الجامعة الاسلامية هي خرافة ابتدعها دماغ مكاتب التيمس في فينا . قال الأستاذ براون:

« انه ليس من السهل تعريف معنى البانسلاميزم بعبارة تنطبق على المثل العربي المشهور «خير الكلام ما قل ودل» ومع الأسف اني استشرت أحد أصدقائي المسلمين في هذا الموضوع فعرفني معنى « بانسلاميزم » بلا تردُّد في بضع كلمات وهي « أن البانسلاميزم هي خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس في فينا » .

وإن تجسيم الأمر في نفس عميد الاحتلال في مصر الى حد انه قد جعله تعصباً للدين لا محل له بالمرة . الاّ اذا كان الغرض منه بعث القلق الى نفوس السياسيين من الأوربيين حتى لقد جرَّه ذلك الغرض الى التعريض بأحكام الدين الاسلامي ، وادعى أنها غير صالحة الى ان تطبق في هذا الزمان

قال ذلك بتصريحات كانَ من عادته ان يتوقاها مراعاة لاحترام الدين الاسلامي ، وتفادياً من جرح شعور المسلمين . تقول على غير عادته لأنه كثير الاحترام للدين الاسلامي كثير الحيطة في التعبير بشيء يتعلق به وكل تصريحاته مستفيضة في هذا المعنى فقد قال في خطبته في كلية غوردون في ٤ يناير سنة ١٨٩٩ :

« ولا يخفى عليكم ان جلالة الملكة ورعاياها المسيحيين من أشد الناس استمساكاً بعروة دينهم . ولذلك فهم يعرفون وجوب احترام دين غيرهم . على ان حكم جلالتها يظلل من المسلمين عدداً اكثر مما يظلل حكم أي ملك في الأرض وهم مع ذلك في عيشة هنيـة وسعادة تحت حكمها الكثير الخيرات ، دينهم موقر وعاداتهم الشرعية محترمة كل الاحترام الخ الخ »

وقد كان يؤثر عنه انه كان يشير الى أن المسلمين لا تصلح حالهم إلاّ اذا تمسكوا بدينهم الصحيح . وقد ذكر في تقرير سنة ١٩٠٥ وفي هذا التقرير سنة ١٩٠٦ ما يفيد امتداح الدين امتداح الذين يقومون بخدمة الدين وتخليصه من الدخائل التي متى خلص منها كان موافقاً لحاجات الناس في التمدن الحديث . وخصَّ منهم بالذكر فقيد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده والسيد احمد منشيء كلية عليكره . ولهذه المناسبة نورد للقارىء نص الخطاب الذي ألقاه اللورد كرزون في كلية عليكره في شهر مايو سنة ١٩٠١ مشيراً فيه الى فوائد الدين الاسلامي والاعتراف بما للمسلمين من الفضل والمدنية .

« نعم يمكن للمسلمين ان يسابقوا غيرهم اذا هم تعلموا كيف يسابقون وهو ما عرفوه مرة

قبل هذا الوقت في أيام كان فيها المسلمين السطوة والسلطان وكان قضاتهم يحكمون بالعدل بين الناس وفلاسفتهم وأئمتهم يؤلفون الكتب النفيسة »

وان عدول اللورد كرومر عن خطته من عدم التعرض للطعن على الدين الاسلامي بأي صورة ومخالفته لبعض ساسة الانكليز مثل اللورد كرزون في الآراء المتعلقة بأن الشريعة الاسلامية أسمح من أن تعيق عن حاجات التمدن الحاضر، كل ذلك جعل الناس يكادون يجمعون على ان اللورد أراد أن يصوّر المصريين للانكليز خصوصاً ولاوربا عموماً بصورة أمة غير قابلة للرقي لتسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصميمة التي يحاول محوها منذ عامين . لذلك قصد تجسيم الجامعة الاسلامية وعزا لها ما عزا . على أن المبادىء التي من هذا القبيل لا تنتشر عادةً الاّ بالدعوة المرتبة التي تقوم بها الجمعيات السياسية أو الدينية فأي جمعية قامت تدعو لمثل هذا الاتحاد في الشرق ؟ اللهمّ إلاّ أن يكون الأمر قاصراً على كلمات يقولها بعض الجرائد في الهند أو في مصر من غير أن يكون لها مدلول في الوجود مطلقاً . فان صحّ وجود هذه الجامعة فانما وجودها لفظي صرف لأني لا أراني أغلو اذا قلت ان الواقع في الوجود هو الفرقة الاسلامية لا الجامعة الاسلامية :

* * *

بعد ان رأى القارىء ان الجامعة الاسلامية لا أثر لها في مصر ولا نظن لها وجوداً في غير مصر ، وانها على هذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيد الجفاء بين الشرق والغرب ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الأوربية يتخذونها ستراً يستر أعمالهم في الشرق ، قد يكون من المفيد جدًّا في هذا المقام أن نتعرض الى مناقشة تلك التهمة الثانية التي يربطها بالجامعة الاسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعلول وهي تهمة التعصب الديني .

— ٥ —

الدين الاسلامي[1] يأمر بالتعاون والتعاضد والائتلاف بين أفراد الأمة كما يأمر بالعدل والاحسان ويوصي خيراً بالمتحالفين له من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة في الفقه . وليس من مبادئه مطلقاً التعصب الشائن الذي يعبر عنه الأفرنج « بالفاناتيسم »

أهل الدين الواحد يوجد بينهم بحكم وحدة الاعتقاد حب ومعاونة تختلف وجوه استعمالها باختلاف الصور العديدة التي تصورها لهم أفهامهم في الدين . وان هذه الجاذبية الدينية تماثل الجاذبية التي تولدها وحدة العنصر أو وحدة اللغة . ونظن ان الأوربيين لم يقصدوا يوماً « بالفاناتيسم » هذه الجاذبية بوجهٍ ما ، ولكنهم يقصدون بالتعصب الديني معنىً عدائياً هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم والتربص بهم فلا يبقون عليهم — وهذا المعنى لا أصل له في الدين كما لا أصل له في نفوس المسلمين الذين كل جنايتهم أمام أوربا انهم أخذوا يفكرون في ان ترقي عقولهم بالتعليم ونفوسهم بالحرية وان يدفعوا بجميع الطرق السلمية كل مبدإ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الرقي العقلي ليسابقوا غيرهم في الحياة المدنية . وانهم يتعاونون الآن من الأوربيين فكيف يمكن ان يضمروا لهم ما يتجنى به هؤلاء عليهم ليبعدوهم عن كل مدنية وليسهلوا لأنفسهم دوام الاستفادة منهم دون أن يفيدوهم . أظن ان وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع وان المسلمين هم أولى بأن يتهموا الأوربيين بالتعصب ولكنهم لا يريدون ولا يستطيعون .

التعصب الديني شعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده إلاّ بآثاره . ومن المشاهد ان الأقباط في مصر يعيشون مع المسلمين مختلطين في المصالح والمساكن متكاتفين في المزارع والأعمال متجاورين على مقاعد المدارس متشاركين في الوظائف والمرافق ولم يسمع من زمان بعيد أن المسلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة هاج هائجهم على اخوانهم أو ظهروا يوماً بما يقتضيه وجود التعصب الديني في النفوس من الحقد الذي يقدح زنده الاشتراك

(١) نشر في العدد ٥٠ من الجريدة المؤرخ ٨ من مايو سنة ١٩٠٧ بعنوان « تقرير اللورد كرومر : التعصب الديني »

في المصالح . ومن المشاهد أيضاً ان الرومي يجيء به طلب الرزق الى مصر منفرداً يدخل إحدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فيتزلف الى كبار أهلها يفسحون له في مساكنها ملجأ يأوي اليه فلا يزال بتجارته الرابحة من بيع الزيتون والجبن بأضعاف القيمة بثمن آجل حتى يصبح ذا مال يقرضه الى الفلاحين بالربا الفاحش ولا يلبث على هذه الحال قليلاً من الزمان إلاّ وهو دائن لاغلب أهل البلد ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمالاً بسطاء . وكل هذا لم يحرك في نفوسهم ذلك التعصب الديني الموهوم . أليس ذلك إلاّ لأن هذا التعصب عديم الأثر في نفوس مسلمي مصر .

أقيم على هذه التهمة الشنعاء التي اتهم بها المصريون دليلان أحدهما مسطور في تقرير اللورد عن سنة ١٩٠٥ بمناسبة حادثة الهاميل في الاسكندرية . وكان ما فيها أن مصرياً ويونانياً تشاجرا على مشترى قطعة من الجبن، فطعن اليوناني المصري طعنة بسكين فقضى عليه . وأعقب ذلك ان يونانياً أراد قتل يوناني آخر بغدارة فأخطأه وأصاب وطنياً فمات فاجتمع رعاع الفريقين وقال بعض فريق المسلمين « اقتلوا النصارى »

والثاني حركة حادثة العقبة من اظهار بعض الجرائد أو بعض الناس ميلهم الى تركيا بمناسبة الخلاف بينها وبين الحكومة المصرية على تحديد التخوم المصرية في تلك الناحية .

أما الحادثة الأولى فلا تثبت من التعصب شيئاً لأن من الأمور الطبيعية ان الناس ينتصرون للمظلوم خصوصاً اذا كان من بني جنسهم . وقد روت روتر في الأسبوع الماضي أن روسياً في باريس أطلق الرصاص على جنديين فرنساويين فهمّ الأهالي بقتله لولا أن رجال البوليس قد أنقذوه من أيديهم ولم يقل أحد بأن انتصار الأهالي في باريس للجنديين كان سببه التعصب الديني. فانتصار الوطنيين للقتيل وانتصار الأروام وغيرهم للقاتل هو من الأمور الطبيعية التي لاتثبت وجود التعصب الديني عند المصريين . لم يبقَ بعدئذٍ إلاّ قول بعضهم « اقتلوا النصارى » فلو صحت نية هؤلاء الصائحين بهذه الصيحة وقابلوا مسيحيين من المصريين أو من السوريين لما مسوهم بسوء . ولكن لفظة النصارى في لغة الرعاع مرادف للأفرنج أو نحو ذلك ، فان كان في نفوسهم عصبية لكانت عصبية جنسية لا عصبية دينية .

حادثة العقبة — يحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الى سبب الحركة الفكرية التي جرت في مصر إبان حادث العقبة وكان من جرائها ان أساء الانكليز الظن بالمصريين وافتكروا ان هؤلاء يتبرمون بهم ويودون لو استبدلوا الاحتلال التركي بالاحتلال الانكليزي . وان مثار هذا التبرم هو التعصب الديني من المصريين للترك . وقد جرّ هذا التوهم الى نتائج مشؤومة ليس هنا محل ذكرها . ولكنا نظن أن الانكليز متى عرفوا السبب الحقيقي لهذه الحركة

وأنصفوا يقلعون عن تهمة المصريين بالتعصب تلك التهمة التي تسوءنا أكثر مما ساءتهم .

تلتمس علل الأشياء بقياسها على أشباهها ونظائرها . فاذا أردنا أن نلتمس علة هذه الحركة الفكرية الخفيفة التي وجدت بمناسبة حادث العقبة حسن بنا ان نرجع بها الى نظائرها من الحوادث. ولا نجد حادثة أشبه بها من جميع الوجوه اكثر من حادثة فشوده . فان الانكليز كانوا يدفعون الترك عن العقبة باسم الحكومة المصرية لمصلحتها ومصلحة الحكومة الانكليزية كما كانوا يدفعون الضابط مارشان عن فشودة باسم الحكومتين المصرية والانكليزية ولمصلحتهما أيضاً . وكان النزاع بين الانكليز وبين الترك على الحدود الشرقية كما كان بينهم وبين الفرنساويين على الحدود الجنوبية المصرية فاذا كان ميل المصريين وقتئذٍ بالنسبة لحادثة فشوده ؟

مضى على حادثة فشوده نحو تسع سنين فمن الناس من لا يزال يذكر الحركة الفكرية في مصر وقتئذٍ، ومنهم من نسيها أو لم يكن يعرفها فعليه أن يتتبع أقوال الجرائد في مجموعها ومفصلها ويحكم بأقوالها على ميل المصريين ان صح ان يحكم على ميلهم بأقوال الجرائد في حادث العقبة كما حصل ذلك بالفعل .

للقارىء أن يراجع في هذا الصدد أعداد جريدة المؤيد الصادرة في ١٢ و١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٦ و٢٧و٢٨ سبتمبرسنة ١٨٩٨ و٢٢ و٢٦ اكتوبر و٢ و٦ و٧ و١٢ نوفمبر من السنة المذكورة . فيجد انه كان في مصر حركة أفكار تتجه في مجموعها الى إفادة جاذبية الناس الى فرنسا أو الى مارشان وجماعته فكيف جاء هذا الشعور وما مصدره هل كان مصدره في النفوس أيضاً تعصباً دينيًّا لفرنسا أو حب استبدال الاحتلال الفرنساوي بالاحتلال الانكليزي ؟ لا هذا ولا ذاك . ولكن من الطبائع العمرانية أن الأمة متى أبعدت عن ادارة حكومتها وجهلت مقاصد حكامها ، أو ظهر لها منهم عين الاستئثار بالمنفعة دونها وحملها على ما تهوى وما لا تهوى من غير أن تستشار ، كل ذلك يدعو بها الى أن تتبرّم بحكومتها اذا كانت حكومة وطنية فاذا كانت أجنبية فيكون التبرم والمقاطعة من باب أولى . ومثال ذلك الحركة الفكرية للأمة في أوائل الثورة العسكرية سنة ١٨٨٢ فان الأمة كانت قلقة تحب الخروج من ذلك الاحتلال الفعلي الشركسي (ان صحّ انه كان يسمى احتلالاً) وان كان قلقها هذا لم يتعد حد القلق لأنه لم تكن لها في الثورة العسكرية فكرة ثابتة ولا مشاركة حقيقة . فهل كان هذا القلق والضجر من حال الحكومة ومن قانون العسكرية الذي كان من شأنه اهانة الشعور المصري مترتباً على تعصب ديني من المسلمين ضد المسلمين ؟ . لا شيء من ذلك أيضاً .

فلو استقرأنا كل العلل الممكنة التي ولدت حركة الأفكار في سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٩٨ بمناسبة حادثة فشوده وسنة ١٩٠٦ بمناسبة حادثة العقبة استقراءً صحيحاً خالياً عن الغرض والميل لوجدنا ان العلة في كل ذلك واحدة وهي قلق الأمة من عدم اشراك الحكومة إياها في شيء من الحكم .

ولكن أولي الأغراض عن جهل أو عن سوء قصد، جاءوا يصورون تلك الحركة الفكرية الطفيفة لعميد الاحتلال في صورة التعصب الديني . وهو قد صوَّرها في الصيف الماضي الى أوربا بصورة مزعجة . كل ذلك والأمة هادئة بعيدة عن التعصب وآثاره .

وانا في هذا المقام نمحض النصيحة لجناب السير عورست أن يعتمد في معلوماته على كبراء الأمة الذين تربطهم به رابطة العمل بالضرورة ، وان لا يسمع قول القائلين بأن في الأمة المصرية تعصباً إذ الواقع ان تلك الأمة ليست كذلك كما أثبتنا بالدليل، بل هي عطشى الى أن يعترف لها بوجود سياسي كأصغر الأمم ولا يكون هذا الاعتراف إلاَّ اذا أخذ الاحتلال في أن يؤيد دعواه بأن يجعل لأفرادها الموظفين منها ارادة وحرية في عملهم وان يعطي الأمة شيئاً من التداخل الجدي في ادارة شؤونها الداخلية . ومتى حصل ذلك كسب الاحتلال صداقة المصريين واعترافهم الخالص . وأصبح ودهم له لا يخفر، ولا تغير وجهه الحوادث، وانتبذ القلق بالتعصب الديني الموهوم مكاناً قصيًّا .

— ٦ —

الانكليز في مصر [1]

هذا عنوان الكتاب الذي نحاول وضعه لبيان خطأ لورد كرومر في كتاب مصر الحديثة وبيان سياسة الاحتلال في مصر والسودان وهو الذي وعدنا بترجمته الى الانكليزية وتوزيعه في أوربا . وهو ينقسم ثلاثة أقسام .

القسم الأول — في الاسلام : ويشمل الكلام على مثار الخطأ في فهم الدين الاسلامي عند الأوربيين الحسني النية . وبيان مقاصد غلادستون واللورد كرومر من الطعن عليه . والكلام على الديموقراطية الاسلامية وانها تفضل بنظامها كل ديموقراطية أخرى من الوجهة الاجتماعية والسياسية . والكلام على المرأة والرق في الاسلام وما ظنه اللورد مغمزاً وليس بمغمز . الخ

القسم الثاني : الحالة الاجتماعية في مصر . والقسم الثالث : سياسة الانكليز في مصر والسودان .

وانا ننشر في الجريدة من هذا الكتاب ما يحتمل المقام نشره في الجرائد اليومية أو ما يكون للكافة في مصر مصلحة من نشره .

من موضوعات القسم الاول

النظام الاجتماعي الاسلامي

مثار خطأ الاوربيين في فهم الدين الاسلامي

إن القاعدة لا يطعن على عدالتها ومطابقتها للعقول مجرد عدم اتباعها . وإن للدين الاسلامي نظاماً اجتماعياً واسعاً يعرف من اطلع عليه مقدار التسامح الذي أودعه . قال جان جاك روسو !

« ان قانون ابن اسماعيل (يعني محمداً) الذي يسير عليه نصف العالم من عشرة »
« قرون يشف الى الآن عن عظم واضعه . في حين ان الفلسفة المتكبرة أو التعصب »

---

(١) نشر بالعدد ٣٣٤ من الجريدة الصادر في ١٤ / ٤ / ١٩٠٨ بعنوان « الانكليز في مصر » او انتقاد كتاب « مصر الحديثة » تأليف اللورد كرومر

« الأعمى لا ترى فيه شيئاً أكثر من أن واضعه ماكر حسن الطالع . ولكن السياسي »
« الحقيقي يعجب بما في ذلك الشرع من القوة الهائلة والملكة القادرة التي توجد دائماً في »
« الشروع الخالدة . . . . »

قال روسو ذلك وهو ينحي ما استطاع على الدين من غير تفريق . وكأن هذا الحكيم الكبير قد لحظ بعين الغيب اللورد كرومر ومؤلفه « مصر الحديثة » وعناه بالفيلسوف المتعجرف أو الذي عصب التحيز عينيه فلا يرى الحق من وراء ذلك الحجاب الكثيف . ولم يكن لورد كرومر في نظر روسو ذلك السياسي الحقيقي الذي يعلم من التشريع مقدار قوته . وفي الواقع فان لورد كرومر بكتابه مصر الحديثة قد قضى على البقية الباقية من شهرته بالسياسي المحنك .

زر كنيسة لاتينية قد ازينت زواياها وجدرانها ببدائع الدمى والتماثيل ، وفرش بعض حيطانها بفاخر الأثواب وطليت برائق الألوان الذهبية من الطلاء وأودعت من النفائس المعدنية والمعجزات الفنية شيئاً كثيراً وتسمع على صلواتها وما انبث فيها من روح الحب . ثم انظر الى طرائق الحديث بين القسس الطليان وبين مريداتهم من السيدات يأتين يستغفرن الله على أيديهم من خطاياهن اللاتي أوقعهن فيها حب الشهوات والتنامي موقتاً لأوامر الله وزواجره وطريقة تضرعهن لبلوغ هذا الغفران ، واسمع عن قرب ما يخفف به ذلك القس الشاب أو الشيخ ويلاتهن في خوف الآخرة وتعريتهن عن هذا الشقاء الوقتي الذي وقعن فيه بإرادة الشيطان ومواساتهن ووعدهن بالمغفرة مع التوبة . وقس بنفسك رونة هذا المشهد الديني الذي يضم في وقت واحد توجه الروح البائسة إلى الله ومحافظتها على رقة العواطف التي اختصت بها الأمم اللاتينية ، تنفعل نفسك بشعور الجمال وتجد أن الدين محبة وان الدين عاطفة وأن الدين تسامح وأن الدين يسر لا عسر وأنه لا فارق بين نهوض الروح الى استغفار الله واستجلاب رحمته وبين وثباتها الى لقاء محبوبها واظهار اخلاصها له .

ثم زر كنيسة انكليزية عارية الحيطان مجردة عن الزخرف تعرفها عما سواها من الدور بأنها أبعدها عن حسن الرواء وأقربها الى الخشونة لا يلفت نظرك فيها شيء من الجمال ولا دقة في الصناعة بل الذي يلفت نظرك هو استبعاد وجود عمارة فخمة خالية من الزينة في مدينة زاهرة كلوندرة مثلاً . ولا تجد بين راعي الكنيسة والمؤتمين به من أبناء الكنيسة من علاقة المحبة والوداد الا ما يكون بين تاجر الفحم وزبائنه . إذا انقضت الصلاة تكون انقضت صفقة الاجتماع الوقتي فلا اعتراف ولا استغفار ولا غفران ولا مظهر من مظاهر رقة العواطف اللاتينية .

يظهر من هذا أن كل أمة من الأمم تصبغ دينها بصبغتها القومية التي تظهر في الأخلاق والعادات . وان الطراوة والمرونة التي تجدها في دين اللاتين والخشونة التي تراها في دين الانكليز، لم تأت إحداها أو كلتاها من تعاليم المسيح عيسى بن مريم ولا انجيله لأن تعاليمه واحدة . فكان يجب أن تنتج نتائج واحدة . ولكنها جاءت من لين الأخلاق اللاتينية وسرعة تأثر الروح في هذا الجنس وشدة ميلها الى الزخرف كما جاءت خشونة دين الانكليز من جفاء الأخلاق الانكليزية وحب البساطة والنظر إلى الأمور كما هي نظرة عادية كأن الدين ليس فيه معاني روحية إلاّ تجارة بين الناس وبين الله يقضونه حقه فيها بالصلاة ويكون هذا هو كل شيء .

ليقارن القارىء بين مظهر التعاليم المسيحية على لسان وأعمال القديس بطرس وأتباعه حين كان يدعو للدين المسيحي في «الكاتاكومب» في رومه في عهد نيرون الظالم وبين مظهر هذه التعاليم المسيحية عينها على أقوال وأعمال البابوات والقسس في العصور الأخيرة . وكيف كان الحواريون يدعون إلى الزهادة في الزينة والزخرف والنفور من حب الشهرة ويرشدون إلى عدم المداخلة في السياسة الدنيوية ويقصرون همهم على تعليم الناس أن يسعوا في الاستيلاء على ملكوت السموات وان يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وكيف كان البابوات والقسس الذين جاءوا بعد ذلك يسعون إلى نعيم الدنيا وزخرفها ويضربون بأكبر سهم في السياسة ويهددون الملوك والسلاطين ويشاركونهم في السلطة الأرضية بل يدعون إلى الحرب وما كان الحواريون يدعون إلاّ إلى السلام .

قارن بين قسيسي الأجيال الأولى للدين المسيحي وبين ذلك القسيس الحديث الذي ضرب به المثل الدكتور ماكس نورداو إذ يقول :

« رفعت دعوى لمحاكمة قسيس على طعنه في حق وزير الديانة في بلده . فوزع القسيس المتهم أوجه دفاعه مطبوعة على الجرائد والجمهور ولما ان حكم عليه بالغرامة فتح اكتتاباً عمومياً حصل منه على عشرة أمثال الغرامة المحكوم بها عليه . ثم نشر مجموعة الخطابات التي جاءته تهنئة له . ثم ساح المملكة طولاً وعرضاً ليري نفسه في كل كاتيدرائية (كنيسة كبرى) للجمهور ليعرفوا شخص ذلك البطل الشهير وكان ذلك فرصة الى أن يقدم لهم صندوق الصدقة ليجود كل منهم عليه بما شاء »

متى لاحظت هذه التطورات والانتقالات التي تعتور المظاهر التعليمية للدين المسيحي ورجاله ومتى قست هذه الفروق التي تكون بين الدين الواحد في وطنين مختلفين لا تجد مندوحة من القول بأن النظامات الاجتماعية للدين الاسلامي لم يكن فيها من القصور ما ظنه

اللورد ولـكنها هي أيضاً كسائر النظامات الأخرى قد أبقت القاعدة العامة أي انها صبغت في هذه الاعصر الأخيرة صبغات الأخلاق التي أورثها الاستبداد لممالك الشرق فظهرت بمظاهر مختلفة للذي لا يهتم بالعلم بدخائل النظامات الاجتماعية وفلسفة الأديان وتأثير النظامات على الأخلاق والأخلاق على النظامات تأثيرات دورية كما هو شأن اللورد كرومر الذي سبح في بحر الانتقاد من غير عوامة، سوى المستر ستانلي لاين بول الذي تعلم منه ان «الدين الاسلامي كنظام اجتماعي أخفق كل الاخفاق» ولـكن اللورد أشفق من الغرق في هذا المعنى الواسع فحدده بأصول أربعة جعلها أسباباً لحـكم المستر ستانلي لاين بول على اخفاق الدين الاسلامي فسردها من غير تدقيق ونظنه في هذا التشويش الفكري وخلط الواقع من أعمال الحـكومات الاسلامية وأعمال بعض الأفراد المسلمين بنفس النظام من حيث هو في ذاته. قد تشبه بالشرقي الذي وصف عقله بأنه يكره التدقيق وينفر منه لمثل جزئي رآه عن بعض محادثيه من الشرقيين على ما نظن.

نعم انه يندر جداً من الأوربيين من علم باللغة العربية علماً كاملاً يؤهله لفهم الأحكام من مصدرها الأصلي وهو القرآن والحديث بل هم يأخذون هذه الأحكام مما ينقله المؤرخون عن أحوال الأمم الاسلاميـة ومن بعض الأوربيين الذين ساحوا في الشرق وكتبوا عن الاسلام والدول الاسلامية قواعد تلقفوها من بعض المسلمين الذين لا يعلمون دقائق شريعتهم حق العلم. وظنوها حقائق دينية ثابتة وليست من الحق في شيء.

قابلت في جنيف سنة ١٨٩٧ كونتاً شابًّا فرنسويًّا على مائدة كبيرة في إحدى الفنادق يجلس عليها جماعات من أمم مختلفة وديانات مختلفة أيضاً وكنت بينهم المسلم الوحيد وقد دار الحديث بين الجماعة على مسألة القضاء والقدر تلك المسألة التي لا أظن العلم يقول فيها أكثر مما قاله «سبنسر» عن «ما تقطع الرجاء من العلم به» فذكرت فيهـا رأياً اسلاميًّا يقول باختيار الفرد فيما يقـدر عليه من الأعمال وان هذا الاختيـار الذي للمخلوق لا ينافي علم الخالق لأن علمه تعالى ليس متوقفاً على الزمان فهو حاصل دفعة واحدة بكل ماكان وما سيكون من الأعمـال التي تجري في عالم الـكون والفساد — فـكان الـكونت وقتئذٍ يلحظني شزراً ثم دخل الى الـكلام في الموضوع وإني لا أعترف له إلاّ بالجرأة على الخوض فيما لا يعرف وكل رأس ماله في المعلومات عن الدين الاسلامي أنه قضى مدة خدمته العسكرية في «الجزائر» وانه كغالب أبناء الأغنياء يرى من الواجب عليه أن يكون هو صدر المجلس في كل موضوع حتى الموضوعات التي هو أجهل الناس بها. قال: كنت في الجزائر وكانت اقامتي فيها فرصة

ثمينة أخذت فيها بأطراف الدين الاسلامي فأهم قواعده هي هذه القاعدة التي لغرابتها لا يزال صداها يتردَّد في أذني الى الآن .

« كل مسلم قابل غير مسلم في مفازة فله حق قتله وله سلبه .... »

فأضحكني قول هذا الكونت الشاب العالم بالدين وأنكرت عليه ذلك وأقمت له الدليل على ان الدين الاسلامي ليس هو دين الغدر الذي وصفه، ولكنه دين الأخاء والمساواة، دين العرب ، دين النجدة والمروءة ، فلما أحرج أكد للحاضرين ان هذه القاعدة هي إحدى آيات القرآن .

أظن ان ذلك الشاب لم يتحوَّل الى الآن عن اعتقاده لأن مقالي له لم يكن ليصادف هوى في فؤاده وعلى ذلك سيبقى على اعتقاده المشوّه حتى يكون من أولي الرأي في العلم السياسي مثل « مونتسكيو » أو من أولي الحل والعقد في السياسة مثل اللورد كرومر فاذا كتب عن المسلمين أو خطب عن حالهم هفت كتابته وخطابته عن الاعتقاد بصحة تلك القاعدة التي نسبها للاسلام زوراً، ثم أكد انها في القرآن بهتاناً . وما هي من الاسلام ولا منزلة في القرآن ولكنها سقطت على الغالب من فهم « أونباشته » إذ كان يحذره من العرب أو من أن يغشى مواطن الشبه أو ينفرد في الأماكن الخالية .

ليس كونتي على جهله وصغره بأول مدَّع على الاسلام بل سبقه البارون دي مونتسكيو على عمله، والمستر غلادستون على فضله وشهرته، ولحقه اللورد كرومر على حنكته وعقله، ان المسلم لا يسعه إلاّ أن يبتسم اشفاقاً على المؤلفين الأوربيين الحسني النية الذين يرمون الاسلام بما يرمون لأن علمهم به كما قلت ليس إلاّ تتفاً يتلقونها من أفواه الجهلة أو من كتب السائحين الذين يتخذون عمل فرد من المسلمين دليلاً على دينهم كما اتخذ اللورد عمل أحد المفتاحجية[1] المصريين دليلاً على عقل الشرقيين على العموم .

قال مونتسكيو :

« ان الدين المسيحي يقوي الحكومة العادلة »

« وان الدين المحمدي يقوي الحكومة الاستبدادية »

فأما كون الدين المسيحي يقوي الحكومة العادلة فهذا لا أنازع مونتسكيو في أمره لأنه أعرف بقواعد دينه وهو حجة في النقل . ولا اعتراض عليه بالحكومات المسيحية من زمن المسيح الى هذا القرن الماضي وما كان للكنيسة في تمهيد الحكومة الاستبدادية . لا أقول

---

(١) صاحب وظيفة صغيرة جداً في مصلحة سكة الحديد ؟ فما أعظم ما اعتمد عليه كرومر من المصادر الوثيقة

الاستبدادية ولا الظالمة، بل أقول حكومة العار التي يلصق فيها بالفرد الذي هو الملك معنى التقديس وان سلطته أتته من الله لا من الأمة فلا يجوز لأحد أن يخلعه عنها ، وان الأمة ترزق هذه السلطة الملوكية كما ترزق خبزها فان كان الملك خيراً وسعداً عليها فهو كالرزق المبسوط ، وان كان شؤماً وبؤساً فهو كالعيش الضنك ، كلاهما خيرها وشرها من الله . تلك هي التعاليم السياسية في القرون الوسطى الى مونتسكيو نفسه ولوك وروسو وغيرهم من هداة السياسة . لا اعتراض عليه بالحكومات المسيحية لأني لا أعرف نصًّا سياسيًّا مسيحيًّا للحكومات قد ورد في الانجيل بصورة واضحة ولأني لا أزال أقول بأن عدم اتباع القاعدة لا يطعن عليها . فلو أن في الدين المسيحي نظاماً مسيحيًّا معقولاً للحكومات (وهذا ما لا أعرفه وأترك الأمر فيه للمسيحيين) لما كان استبداد الحكومات المسيحية يطاعن على الدين المسيحي في شيء . نعم أن هناك سياسة قد أخذت مصدرها من التوراة وهي سياسة « بوسوي » ولكنها سياسة مشوهة لا أظن انها تنطبق على الفكرة الراقية للايمان بالله . لأن هذه السياسة تدعو الى الملوكية المطلقة وقد هدمها ڤولتير بكتاباته . فهل كان مونتسكيو يشير الى تلك السياسة حين قال « ان الدين المسيحي يقوي الحكومة المعتدلة » .

إذا كان مونتسكيو يشير الى تلك السياسة الاستبدادية التي بنت قواعدها على الاستنتاج من التوارة فكيف ساغ له أن يقول إن الدين المسيحي يهدي الى الحكومة العادلة وكيف يمكن أن يفهم العدل في حكومة استبدادية أي ملوكية مطلقة .

وان كان منتسكيو يشير الى تعاليم سياسية مسيحية أخرى غير التي بناها بوسوي وهدمها ڤولتير ، فذلك له .

ونظن انه انما أراد بذلك التوفيق بين مصلحته ومصلحة رجال الكنيسة الذين كانوا لا يزالون أقوياء في وقته . ولسنا نقول ذلك جزافاً كما يقول هو عن الدين الاسلامي بل إنا نتكئ فيما نقول على شهادة « بارتلمي سانت هيلير » إذ يقول في معرض الانتقاد على أن سلطة الملك مستمدة من الله :

« وهذه القاعدة رغماً عن أن الثورات قد كذبتها مراراً وان بعض الفلاسفة قد حاربوها »
« فانها كانت على العموم هي القاعدة المقبولة . وان مونتسكيو لم يجرأ على مناقشتها لأنه كان »
« أبعد الناس عن أن يفكر في محاربتها » .

وان هذه الشهادة من العلامة السياسي « بارتلمي » على مواطنه « مونتسكيو » في قعوده

عن محاربة قواعد العسف والاستبداد تدلنا على مقدار حب ذلك العالم الكبير للرقي من الحكومة الحالية وهي استبدادية وقتئذٍ (النصف الأول من القرن الثامن عشر) للكنيسة أثر كبير فيها . وعلى ذلك فليس من المجازفة أن نقول بأن محاباته للدين المسيحي بأنه يقوي الحكومة المعتدلة محاباة مشكوك في خلاصها من الهوى الشخصي .

لذلك نرى أن طعن اللورد كرومر على النظام الاجتماعي في الاسلام فرصة ثمينة نذكر فيها طرفاً من الديموقراطية الاسلامية وهل هي خير من ديموقراطية أرسطو وخير من ديموقراطية روسو وانها خلت من العيوب التي تلحق بتينك الديموقراطيتين لكي يعلم اللورد كرومر انه لما قال :

« ولا ننس عند الكلام على مسئلة إدخال التمدن الأوربي الى مصر ان الاسلام غير قابل للاصلاح أي أن الاسلام ليس اسلاماً بعد اصلاحه بل هو شيء آخر لا نعلم الآن ماذا يكون حينئذٍ » .

قال السير وليم لوير : « ان الأمم المسيحية قد ترتقي في الحضارة والتربية والآداب والفلسفة والعلم والفنون ولكن الاسلام مكث حيث كان وسيبقى كذلك بحسب حكم التاريخ »

قد أساء الى نفسه وأساء إلى العلم وانه وان صحّ قول « هيجو » : « ان اللورد عالم بالقراءة والكتابة بقوة القانون » لا يصح أن يكون اللورد عالماً بالشريعة الاسلامية بقوة القانون أيضاً .